

هكذا عاشوا مع القرآن

١٤٣٢

قِصصٌ ومَواقِفُ

د.أسماء بنت راشد الرويشد

المشرفة العامة على مؤسسة آسية للاستشارات والتدريب

وموقع آسية الإلكتروني



هكذا عاشوا مع القرآن

قصص ومواقف

الطبعة الثالثة

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤

الرياض ـ الدائري الشرقي ـ مخرج ١٥

هاتف ٠١١٢٥٤٩٩٩٣ ـ تحويلة ٣٣٣

ناسوخ ٠١١٢٥٤٩٩٩٦

ص.ب.٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

www.tadabbor.com

. . . .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الرويشد، أسماء راشد

هكذا عاشوا مع القرآن / أسماء راشد الرويشد - ط٣- الرياض، ١٤٣٥

١٦٨ ص؛ ١٧ × ٢٢سم

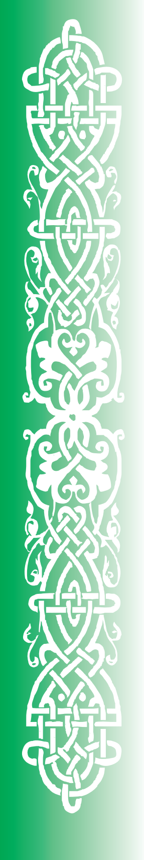
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٤٤٣٣-٤

١- القرآن ٢- مباحث عامة أ. العنوان

ديوي ٢٢٩ ١٤٣٥/٢٢٩٣

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٢٢٩٣

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٤٤٣٣-٤

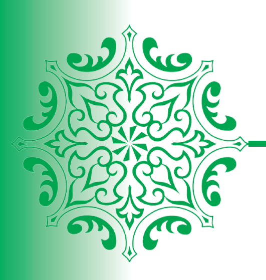


هكذا عاشوا مع القرآن

١٤٣٢

قصص ومواقف


بسم الله الرحمن الرحيم



قبل البدء

❁ يقول الله تعالى في محكم قرآنه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[(١)].

❁ قال النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «اقرأ عليَّ، فقال عبد الله رضي الله عنه: أقرأُ عليكَ وعليكَ أُنزل؟ قال النبي عليه السلام: نعم، فقرأت عليه سورة النساء حتى أتيتُ إلى هذه الآيةِ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[(٢)]، قال: حسبك الآن، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان»[(٣)].

❁ فليس شيءٌ أنفعُ للعبدِ في معاشِهِ ومعادِهِ من تدبر القرآنِ وجمعِ الفكرِ على معاني آياتِهِ؛ فلا تزالُ معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها؛ لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتناديه كلما فترت عزماته:

---

(١) ص: ٢٩.

(٢) النساء: ٤١.

(٣) رواه الشيخان، وهذا نص البخاري (٤/ ١٩٢٥).

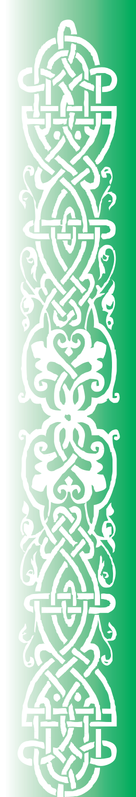
تقدمَ الركبُ، وفاتكَ الدليل، فاللحاقَ اللحاقَ، والرحيلَ الرحيلَ[١].

* إنّ تأثير القرآن في نفوس المؤمنين إنما يحصلُ بمعانيه لا بأنغامه، وبمن يتلوه من العاملين به لا بمن يُجوِّده من المحترفين له، ولقد زلزل المؤمنون بالقرآن الأرضَ يوم زلزلت معانيه نفوسَهم، وفتحوا به الدنيا يوم فتحت حقائِقُه عقولَهم، وسيطروا به على العالم يوم سيطرت مبادئُه على أخلاقِهم ورغباتِهم، وبهذا فقط ولا شيء سواه يُعيد المسلمون التاريخ إلى سيرته الأولى[٢].

* إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه؛ يُحدث مثل هذا التّأثير في نفوس علماءَ لا يَمُتُّونَ إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة؛ فكيف تكون قوة الحماسة التي تستهوي عرب الحجاز وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الجميلة؟!

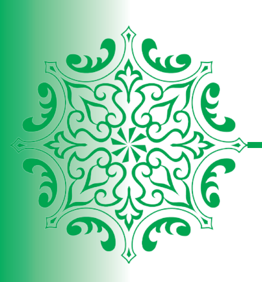
لقد كانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملكُ نفوسَهُمُ انفعالاتٌ هائلة مباغتة، فيظلون في مكانهم وكأنهم قد سُمِّروا فيه، أهذه الآيات الخارقة تأتي من محمد ﷺ ذلك الأمي الذي لم ينل حظًا من المعرفة؟ كلا، إن هذا القرآن ليستحيل أن يصدر عن محمد ﷺ، وأنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الآيات البينات!





(١) مدارج السالكين/ ابن القيم (١/ ٤٨٥ – ٤٨٦).

(٢) هكذا علمتني الحياة/ مصطفى السباعي، ص٢٦٧.



بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين، وبعد:

فالقرآن الكريم كلام الله الذي أنزله على خاتم رسله محمد ﷺ، وقد أنزله بِلِسَانِ العربِ فكان ذِكْرًا وتَشْرِيفًا لهم، يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[١]، وجعله مُعْجِزًا في البيان ليدوم إعجازه فلا ينقطع على مرِّ الأزمان، يقول تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾[٢].

وقد تكفل الله تعالى بحفظه، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[٣]، فلا يستطيع أحدٌ أن يُبدِّله أو يَزيد فيه أو يَنقص منه، وقد جاءَ في الحديثِ عندَ مسلمٍ: وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لاَ يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ[٤].

---

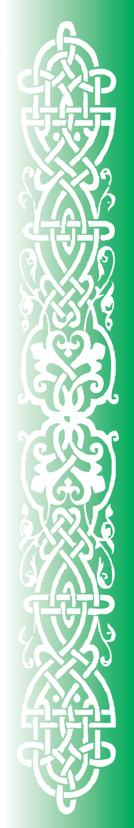
(١) الزخرف: ٤٤.

(٢) البقرة: ٢٣-٢٤.

(٣) الحجر: ٩.

(٤) صحيح مسلم (٨/ ١٥٨).

وجعله سبحانه وتعالى مُيَسَّرًا للفهم والادِّكار، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[(١)]، ثم أمرنا بتدبره فقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[(٢)]، وجمع الله سبحانه وتعالى فيه أحكام كل شيء، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[(٣)].



ولذا اعتنى به صَحْبُ رسول الله ﷺ، وتابعهم على ذلك السلف الصالح من هذه الأمة؛ تلاوة وحفظًا وتدبرًا وفهمًا وعملاً، ومع ضعف الأمة في عصورها المتأخرة تراجع الاهتمام بالقرآن الكريم، حتى صار الأمر عند غالب المسلمين إلى حفظه وتجويده وتلاوته بلا تدبر مع التقصير في العمل به. وقد أنزل الله القرآن وأمرنا بتدبره، وتكفل لنا بحفظه، فانشغلنا بحفظه وتركنا تدبره، قال الحسن: «نزل القرآن ليُتَدَبَّر ويُعمل به؛ فاتخذوا تلاوته عملا، فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع الفكر على معاني آياته»[(٤)].

والتأمل والتدبر كما قال ابن القيم رحمه الله: «تحديقُ نَاظِرِ القلبِ إلى معانيه، وجمعُ الفكرِ على تدَبُّرِهِ وتَعَقُّلِهِ، وهو المقصودُ بإنزالِهِ، لا مجردَ تِلاوَتِهِ بلا فهم ولا تدبُّرٍ، قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[(٥)]،

---

(١) القمر: ١٧.

(٢) ص: ٢٩.

(٣) النحل: ٨٩.

(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٥١).

(٥) ص: ٢٩.

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[3]»[4].

وهذا كتاب جمعت فيه قصصا ومواقف لتدبر النبي ﷺ للقرآن، وكذلك تدبر من بعده من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان من سلف هذه الأمة.

كما أوردت فيه قصصا لتأثر بعض المعاصرين بالقرآن، وتدبرهم له.

وجعلت بين يدي ذلك مدخلا تحدثت فيه عن معنى تدبر القرآن، وأهميته، وأسباب تحصيله.

وذيلت الكتاب بملحق أوردت فيه أقوالا لمشاهير عن القرآن الكريم.

سائلة الله تعالى أن يتقبل هذا الكتاب، وأن ينفع به

والله المستعان، وعليه التكلان، والحمد لله رب العالمين.

د. أسماء بنت راشد الرويشد

المشرفة العامة على مؤسسة آسية للاستشارات والتدريب

وموقع آسية الإلكتروني

للتواصل : asma@asyeh.com

---

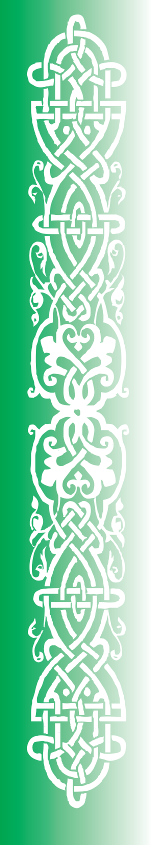
(١) محمد: ٢٤.

(٢) المؤمنون: ٦٨.

(٣) الزخرف: ٣.

(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٥١).

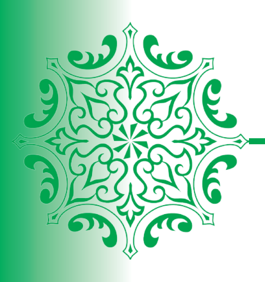




المدخل

طريقُ الوصُول إلى تدبر القرآن الكريم





معنى التدبر

تَدَبَّرَ الأمرَ لغةً؛ أي: نَظَرَ في عواقبه[1]، وقال في تاجِ العروسِ: في الكتَابِ العَزِيزِ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾[2] أي ألم يَتَفَهَّموا ما خُوطِبُوا به في القُرآن؟ وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[3]، أي أفلا يَتفَكَّرُون فيَعتبِروا، فالتَّدبُّر هو التَّفكُّر والتَّفَهُّم[4].

فيكون معنى تدبر القرآن: هو التفكر والتأمل في كلام الله لأجل فهمه، وإدراك معانيه وحكمه، والمراد منه .



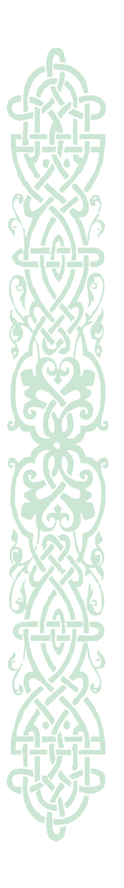
---

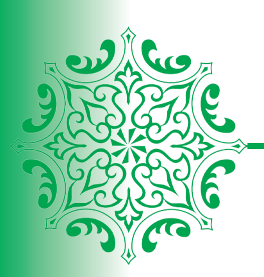
(١) أساس البلاغة (ج ١ - ص ١٢٩).

(٢) المؤمنون: ٦٨.

(٣) محمد: ٢٤.

(٤) تاج العروس (١/ ٢٨١٤).






حَدِيْثُ القُرْآنِ عَنِ التَّدَبُّر

ذكر الله تعالى في كتابه العزيز علاماتٍ وصِفَاتٍ؛ تصف حقيقة تدبر القرآن الكريم وتوضحها بجلاء، يقول الله تعالى آمِرًا عبادَهُ بتدبر القرآن، وناهيًا لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[1][2]. ويقول ابن القيم في النوع الرابع من أنواع هجر القرآن: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه[3]. وفي هذا يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[4]، قال ابن كثير: وترك تدبُّرِهِ وتَفَهُّمِهِ مِنْ هُجْرَانِهِ[5]، ورَوى ابن كثير عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾[6]، قال: والذي نفسي بيده؛ إن حقَّ

----

(١) النساء: ٨٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير (٢/ ٣٦٤).

(٣) الفوائد/ ابن القيم (١/ ٨٢).

(٤) الفرقان: ٣٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير (٦/ ١٠٨(.

(٦) البقرة: ١٢١.

تلاوتِهِ أن يُحِلَّ حلاله، ويُحَرِّمَ حرامه، ويقرأه كما أنزله الله[1]. ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2]، فَهُمْ بِخِلافِ الكافرِ الذي ذُكِّرَ بآيات ربه فاستمر على حاله، كأن لم يسمعها أصمَّ أعمى، قال مجاهدٌ: قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[3]: لم يسمعوا، ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئًا، وقال الحسن البصري: كم مِن رجلٍ يقرؤها ويَخِرُّ عليها أصم أعمى![4].

وانظر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[5]، فقد وصفهم الله تعالى بسيل الدمع عند البكاء، ورقة القلب عند سماع القرآن[6]، إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيرًا عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه، والذي لا يجدون له في أول الأمر كِفَاءً من التعبير إلا الدمع الغزير، وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجةً أعلى من أن يَفِيَ بها القولُ؛ فيفيض الدمع ليؤدي ما لا يؤديه القول، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف، ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع، ولا يقفون موقفا سلبيًا من الحق الذي



(١) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير (١/ ٤٠٣).
(٢) الأنفال: ٢.
(٣) الفرقان: ٧٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير (٦/ ١٣١).
(٥) المائدة: ٨٣.
(٦) تفسير الخازن (٢/ ٣٢٤).

تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن، والشعور بالحق الذي يحمله، والإحساس بما له من سلطان، إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق! إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفًا إيجابيًّا صريحًا، موقفَ القَبُولِ لهذا الحق، والإيمان به، والإذعان لسلطانه، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة صريحة[1].



ويقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[2]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الصواعق المرسلة: ذمَّ الله المحرفين لكتابه والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة؛ وهي الأماني[3]، وعن قتادة قال: إنما هم أمثالُ البهائم، لا يعلمون شيئًا[4]، وقال المَاوَرْدِيُّ: والثالث... يعني: إلا تلاوةً من غيرِ فَهْمٍ؛ قَالَهُ الفَرَّاءُ والكِسَائِيُّ[5].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[6]، أي هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لِمَا يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لِمَا يَرجون ويُؤمِّلون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٤١٦).

(٢) البقرة: ٧٨.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة/ ابن القيم (٣/ ١٠٤٩).

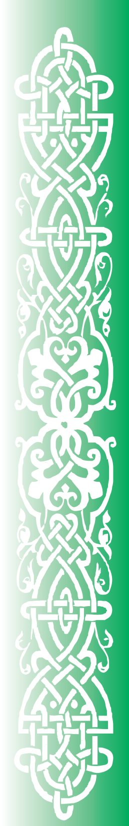
(٤) تفسير الطبري (٢/ ٢٦٠).

(٥) النكت والعيون/ الماورديّ (١/ ٦٥).

(٦) الزمر: ٢٣.

من وجوهٍ ... عددها ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ حتى قال: الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آياتُ الرحمنِ: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[1]، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[3]، أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم[4].

وعن التابعي الجليل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إن هذا القرآنَ قد قرأه عبيدٌ وصبيانٌ لا عِلْمَ لهم بتأويله، ولم يتأولوا الأمر من أوله، قال الله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[5]، وما تدبُّرُ آياته إلا اتباعه، والله يعلم، أمَا والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأتُ القرآنَ كلَّه فما أُسقط منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله، ما تَرى القرآن له في خُلُقٍ ولا عملٍ، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَسٍ واحد، والله ما هؤلاء بالقُراءِ ولا الحُكماءِ ولا الوَرَعَةِ، متى كانتِ القراءُ تقولُ مثلَ هذا؟ لا أكثرَ الله في الناسِ مثل هؤلاء[6].



---

(١) مريم: ٥٨.

(٢) الأنفال: ٢.

(٣) الفرقان: ٧٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير (٧/ ٩٤).

(٥) ص: ٢٩.

(٦) أخلاق حملة القرآن للآجري (١/ ٣٩).

فتحصَّلَ من استعراض بعض حديث القرآن عن التدبرِ؛ عِدَّةُ علاماتٍ تَدُلُّ على حصولِهِ؛ منها:

١. اجتماعُ القلب والفكر عند قراءته.

٢. فيضُ العين من خشية الله.

٣. زيادةُ الخشوع.

٤. السجودُ تعظيمًا لله.

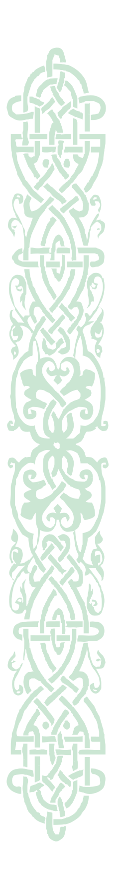
٥. زيادةُ الإيمان؛ مع الفرح والاستبشار به.

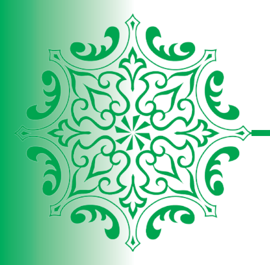
٦. وَجَلُ القلبِ خوفًا من الله تعالى.

فمن وجد واحدًا من هذه الصفات أو أكثر قد وصل إلى حال التدبر والتفكر بحسبه، أما من لم يحصل له أيٌّ من هذه الصفات فنسأل الله ألاَّ يحرمه من لذة تدبر القرآن الكريم.









التَّدَبُّرُ فِي السُّنَّةِ الشَّرِيفَةِ

في السنة الشريفة ما لا يُحصى كثرةً من كنوزِ التدبر العملي؛ ابتداءً من سيدِ الخلقِ وحبيبِ الحقِّ ﷺ، ومرورًا بصحابته البررة، وانتهاء بالسلف الصالح من التابعين وتابعيهم بإحسان، وسنضرب صفحًا عن الآثار التي سيتم سردها في ثنايا الكتاب إيثارا للاختصارِ، وعدم الإملالِ بالتكرارِ، فمن ذلك ما رَوَى حذيفةُ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذاتَ لَيْلَةٍ؛ فافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ؛ فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ...إلى آخر الحديث[١]، وتأمَّلْ قولَ حذيفة رضي الله عنه: «يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً» مُسْتَحْضِرًا بركةَ وقتِهِ ﷺ وكيف قرأ هذه الطوال مترسلاً؛ وأعجَبْ!.

وعن عبد الله بن عمروٍ رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث[٢].

---

(١) صحيح مسلم (٢/ ١٨٦).

(٢) صحيح أبي داود (١/ ٢٦٢).

وقد قام النبي ﷺ ليلةً بآيةٍ يُرَدِّدُهَا حتى أصبحَ وهي: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[١]، بها يركعُ، وبها يسجدُ، وبها يدعو، فلما أصبحَ قال له أبو ذرٍّ رضي الله عنه: يا رسولَ الله؛ ما زلتَ تقرأُ هذه الآية حتى أصبحتَ! تركعُ بها، وتسجد بها، وتدعو بها، وقد عَلَّمَكَ اللهُ القرآنَ كُلَّهُ، لو فعلَ هذا بعضُنا لوجدنا عليه، قال: إني سألتُ ربي عز وجل الشفاعةَ لأمتي فأعطانيها، وهي نائلةٌ إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئًا[٢].

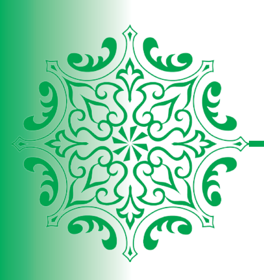


---

(١) المائدة: ١١٨.

(٢) صحيح البخاري، صفة الصلاة (١/ ١٢١).





فضل التدبر وأهميته



التدبر هو مفتاح الفهم لكلام الله، يقول الإمام الزركشيُّ في البرهان: تُكْرَهُ قِرَاءَةُ القرآنِ بلا تدبرٍ، وعليه محل حديث عبد الله بن عمرو: لا يَفْقَهُ مَنْ قرأ القرآن في أقلَ مِنْ ثلاثٍ... ذَمَّهُمْ بِإحْكَامِ ألفاظهِ وتَرْكِ التَّفَهُّمِ لِمَعَانِيهِ(١)، وَهَا هُوَ النَّبِيُّ ﷺ يَصِفُ أفْرَادًا يَذُمُّهُمْ فَيَقُولُ: يَخرجُ نَاسٌ مِنَ قِبَلِ المَشْرِقِ، يَقرؤون القرآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّيْنِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ(٢)... يعني - واللهُ أعلمُ - أنهم لا يتفقهونَ به حتى يَصِلَ إلى قلوبهم، لأنَّ الفهمَ راجعٌ إلى القلبِ، فإذا لم يَصِلْ إلى القلبِ لم يَحْصُلْ فيه فَهْمٌ على حالٍ، وإنما يَقِفُ عندَ مَحِلِّ الأصواتِ والحروفِ فقط، وهو الذي يشتركُ فيه من يفهمُ ومن لا يفهم(٣).

وثَبَتَ عَنْ عَبدِ الله بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أنَّ رَجُلا قَالَ لَهُ: إِنِّي لأَقْرَأُ الْمُفَصَّلَ فِي رَكْعَةٍ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ؟! إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ

---

(١) البرهان في علوم القرآن - (١/ ٤٥٥) فصل فى كراهة قراءة القرآن بلا تدبر.

(٢) صحيح البخاري (٦/ ٢٧٤٨)، وقوله: «تراقيهم» جمع تَرْقُوَةٍ، وهي عَظْمٌ بينَ نَقْرَةِ النَّحْرِ والعَاتِقِ، والمُرَادُ أنها لا تَصِلُ إلى قلوبهم ولا يتأثرون بها.

(٣) كتاب الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٦٤).

إِذَا وَقَعَ فِى الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ[(١)].

وأَخْرَجَ الآجُرِّيُّ فِي «حَمَلَةِ القُرْآنِ» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لا تنثروه نثر الدَّقْلِ، ولا تَهُذُّوْهُ هَذَّ الشِّعْرِ، قِفُوا عندَ عجائبه، وحَرِّكُوا به القلوبَ، ولا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخرُ السورة[(٢)]. قال العلماء: والترتيلُ مستحبٌ للتدبرِ ولغيره، قالوا: يستحبُّ الترتيلُ للأعجمي الذي لا يفهمُ معناه؛ لأن ذلك أقربُ إلى التوقيرِ والاحترامِ، وأشدُّ تأثيرًا في القلب[(٣)].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: لا شيءَ أنفعُ للقلبِ مِنْ قراءةِ القرآنِ بالتدبرِ والتفكرِ؛ فإنه يورثُ: المحبةَ والشوقَ والخوفَ والرجاءَ والإنابةَ والتوكلَ والرضَا والتفويضَ والشكرَ والصبرَ، وسائرَ الأحوالِ التي بها حياةُ القلبِ وكمالُه، وكذلك يَزْجُرُ عن جميعِ الصفاتِ والأفعالِ المذمومةِ؛ والتي بها فسادُ القلبِ وهلاكُه، فلو عَلم الناسُ ما في قراءةِ القرآنِ بالتدبرِ لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأهُ بتفكرٍ حتى مرَّ بآيةٍ هو محتاجٌ إليها في شفاءِ قلبِهِ؛ فليكررها ولو مائة مرة، فقراءةُ آيةٍ بتفكرٍ وتفهمٍ خير من قراءةِ ختمةٍ كاملةٍ بغيرِ تدبرٍ وتفَهُّمٍ، وهوَ أنفعُ للقلبِ وأدعى إلى حصولِ الإيمانِ وذَوْقِ حلاوةِ القرآن ... فقراءة القرآن بالتفكر هي أصلُ صلاحِ القلب[(٤)].

وإن قارئ القرآن ليُحَدِّثُ ربَّهُ تعالى ويناجيه؛ فَلْيَعِ ما يناجي به..



(١) رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظ مسلم في إحدى رواياته (٢/ ٢٠٤).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٨٢).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (١/ ٩١).

(٤) زاد المعاد (١/ ٣٢٣).

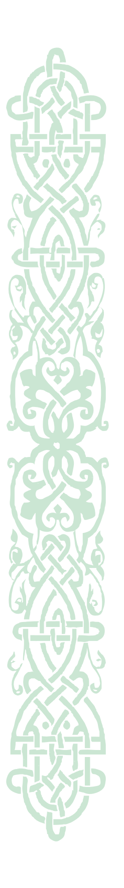
وتأمل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[١]: فقاس سبحانه مَنْ حَمَّلَهُ كتابَهُ ليؤمِنَ به ويتدبرَهُ ويعمل به ويدعو إليه؛ ثم خالف ذلك؛ ولم يَحْمِلْهُ إلا على ظَهْرِ قَلْبٍ، فقرأه به بغيرِ تدبرٍ ولا تَفَهُّمٍ ولا اتباعٍ له ولا تحكيمٍ له وعملٍ بموجبه؛ كحمار على ظهره زَامِلَةُ أسفارٍ لا يدري ما فيها، وحظُّه منها حملُهَا على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثلُ وإنْ كانَ قد ضُرب لليهود؛ فهو مُتَنَاوِلٌ من حيث المعنى لِمَنْ حَمَلَ القرآنَ فتركَ العملَ به، ولم يؤدِّ حقَّهُ ولم يَرْعَهُ حقَّ رعايته[٢].

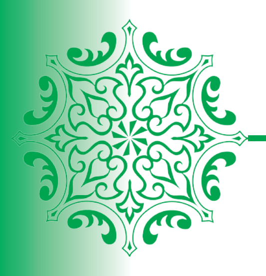




(١) الجمعة: ٥.

(٢) الأمثال في القرآن/ لابن القيم (ص ٢٧).

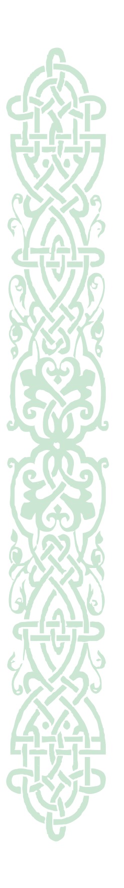


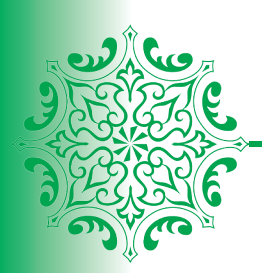


ولتتبين أهمية تلاوة القرآن حق التلاوة ؛ تأمل قول ابن القيم في مفتاح دار السعادة بعد أن ذكر بعض الآيات، ثم قال: فحقيقةُ التلاوةِ في هذهِ المواضعِ هي التِّلاوةُ المُطلقةُ التامةُ، وهي تلاوةُ اللفظِ والمعنى، فتلاوةُ اللفظِ جزءٌ من مُسمَّى التلاوةِ المطلقةِ، وحقيقةُ اللفظِ إنما هي الاتباعُ، يقال: أُتْلُ أَثَرَ فلانٍ، وتَلَوْتُ أَثَرَهُ وقَفَوْتُهُ وقَصَصْتُهُ بمعنى: تَبِعْتُ خَلْفَهُ... وهذه التلاوةُ وسيلةٌ وطريقةٌ، والمقصودُ التلاوةُ الحقيقيةُ، وهي تلاوةُ المعنى واتباعُهُ تصديقًا بخبرِهِ، وائتمارًا بأمره، وانتهاء بنهيه، وائتمامًا به، حيثما قادك انقدت معه، فتلاوةُ القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقًا[1].



(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٢).







الفرق بين التدبر والتفسير

هناك من يفهم التدبر للقرآن الكريم على أنه تفسير له فحسب، بينما التدبر هو ثمرة فهم القرآن وتفسيره، والذي ينبغي على أهل التدبر والتأمل في كلام الله أن يَسْتَعِينُوا بأقوالِ أهلِ العلمِ في تفسيرِ كتابِ اللهِ ليكونَ تدبرهم وفهمهم مُتَّسِقًا تمامًا مع مراد الله من كلامه!.

فأما التفسير والتأويل فهو من اختصاص أهل العلم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فَأَمَّا تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِ فَحَرَامٌ... فَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَقَدْ تَكَلَّفَ مَا لا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَسَلَكَ غَيْرَ مَا أُمِرَ بِهِ، فَلَوْ أَنَّهُ أَصَابَ الْمَعْنَى فِي نَفْسِ الأَمْرِ لَكَانَ قَدْ أَخْطَأَ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ الأَمْرُ مِنْ بَابِهِ، كَمَنْ حَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ؛ وَإِنْ وَافَقَ حُكْمُهُ الصَّوَابَ فِي نَفْسِ الأَمْرِ، لَكِنْ يَكُونُ أَخَفَّ جُرْمًا مِمَّنْ أَخْطَأَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ[1].

أما التدبر؛ فيقول الله تبارك وتعالى عنه في محكم كتابه: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[2]، أي: فهل من مُعْتَبِرٍ مُتَّعِظٍ، يتذكرُ فيعتبرُ بما فيه من العِبَرِ

----

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٧٠).

(٢) القمر: ١٧.

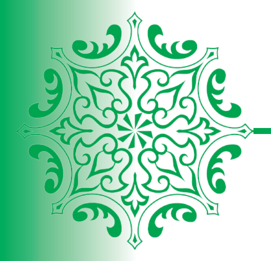
والذِّكْر[١]، قال البِقَاعِيُّ: وهي إشارةٌ إلى ارتفاعِ عُذْرِ مَنْ تَعَلَّقَ باستِصْعَابِ الأمورِ على زواجِرِهِ وتنبيهاتِهِ ومواعظِهِ، ويَدَّعِي بعد ذلك استغلاقه؛ فقيل له: إنه مُيَسَّرٌ قريبُ المَرام، وهذا فيما يحصل عند التنبيه والتذكير لما عنده؛ بكون الاستجابة بإذن الله تعالى، ووراءَ ذلكَ من المُشْكِلِ والمُتَشَابِهِ ما لا يتوقفُ عليهِ ما ذكره، وحَسْبُ عمومِ المؤمنينَ الإيمانُ بجميعه، والعملُ بِمُحْكَمِهِ، ثم يفتحُ الله تعالى فَهْمَ ذلكِ على مَنْ شَرَّفَهُ بِهِ وأعلى دَرَجَته[٢].



(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٨٤).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٨/ ٢٦٤).





ثمرات تدبر القرآن الكريم وفوائده

إن الثمرة العظمى، والفائدة الكبرى من تدبر كلام الله هي أن يثمر في القلب إيمانًا، يدفع صاحبه إلى العمل بمقتضاه، بحيث يكون رضى الله وحده مبتغاه، فلا يرى دون ذلك ولا بعده شيئًا، إلا أن يكون موصلا إليه أو ممرًا عليه، فأما التدبر المجرد دون اعتبارٍ وعملٍ فمحصلته في نهاية الأمر رهبنةٌ وسفسطة لم يقصد إليهما الشارع الحكيم من إنزال القرآن الكريم، فقد نزل ليكون هداية للبشر، ونبراسًا لهم في دياجير الحضارات الأرضية، ولا يمكن أن يكون القرآن في واقعنا بهذا الوصف إلا بتطبيقه، ولا يَتأتى تطبيقه إلا بفهمه وتدبره لمعرفة مراد الله من كلامه، يقول العلامة السعدي: وكلما ازداد العبد تأمُّلاً فيه ازداد علمًا وعملا وبصيرة(١)، ويقول العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: فلا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه(٢).

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في فوائد التدبر والتفكر: ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده من تدبر القرآن، وجَمْعِ الفكرِ على معاني آياته، فإنها:

* تُطْلِعُ العبدَ على مَعَالِمِ الخيرِ والشرِّ بحذافيرها.

---

(١) تفسير السعدي (١/ ١٨٩- ١٩٠).

(٢) تفسير القرآن للعثيمين (١/ ٢٠).



* وعلى طُرقاتها وأسبابها وثمراتها ومآل أهلها.
* وتجعل في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة.
* وتثبت قواعد الإيمان في قلبه.
* وتُرِيهِ صورةَ الدنيا والآخرةِ أو الجنةِ والنارِ في قلبه.
* وتُحضره بين الأممِ، وتُرِيهِ أيامَ الله فيهم.
* وتُبَصِّرُهُ مواقعَ العِبَرِ.
* وتُشْهِدُهُ عدل الله وفضله.
* وتُعَرِّفُهُ ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه.
* وقواطع الطريق وآفاته.
* وتعرفه النفس وصفاتها.
* ومفسدات الأعمال ومصححاتها.
* وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار.
* وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم.
* ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة[١].
* وأقسامَ الخلقِ واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

حتى قال: فلا تزال معانيه – أي القرآن الكريم:

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٨٥ – ٤٨٦).

❇ تُنْهِضُ العبدَ إلى ربه بالوعدِ الجميلِ.

❇ وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوَبِيلِ.

❇ وتَهديه في ظُلَمِ الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل.

❇ وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل.

❇ وتبصره بحدود الحلال والحرام وتوقفه عليها؛ لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل.

❇ وتناديه كلما فترت عزماته: تقدمَ الركبُ وفاتك الدليل، فاللحاقَ اللحاقَ والرحيلَ الرحيل.

وفي تأمُّلِ القرآن وتدبُّره وتفهُّمه أضعافُ أضعافُ ما ذُكر من الحِكَمِ والفوائد، وبالجملةِ فهو أعظمُ الكنوزِ، طَلْسَمُهُ الغوصُ بالفكر إلى قرار معانيه[1]... حتى أوجز ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: وبالجملة تُعَرِّفُهُ – أي الآياتُ:

١. الربَّ المدعوَّ إليه.

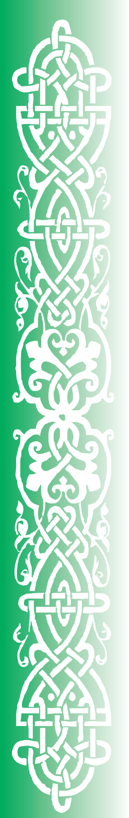
٢. وطريقَ الوصولِ إليه.

٣. وما له من الكرامةِ إذا ما قَدِمَ عليه.

وتعرِّفُهُ في مقابلِ ذلكَ ثلاثةً أخرى:

٤. ما يدعو إليه الشيطان.

٥. والطريقَ الموصلة إليه.



(١) مدارج السالكين (١/ ٤٥١).

٦. وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه[١].

ويقول العلامة السَّعْدِيُّ: إن تدبُّرَ كتابِ الله:

- ❋ مِفتاحٌ للعلومِ والمعارفِ.
- ❋ وبه يُستنتجُ كلُّ خيرٍ.
- ❋ وتُستخرج منه جميع العلوم.
- ❋ وبه يَزداد الإيمان في القلب وتَرْسَخُ شجرته، فإنه:
  - ○ يُعرِّف بالربِّ المعبودِ.
  - ○ وما له من صفاتِ الكمالِ.
  - ○ وما يُنزه عنه من سِماتِ النقصِ.
- ❋ ويُعرِّف الطريقَ المُوْصِلَةَ إليه وصفةَ أهلها.
- ❋ وما لهم عند القدومِ عليه.
- ❋ ويعرِّف العدوَّ الذي هو العدوُّ على الحقيقة.
- ❋ والطريقَ الموصلةَ إلى العذابِ، وصفةَ أهلها.
- ❋ وما لهم عند وجودِ أسبابِ العقاب.
- ❋ وكلما ازداد العبد تأملا فيه؛ ازداد علمًا وعملا وبصيرة[٢].

إنّ مَنْ يتدبرُ القرآنَ الكريمَ حقَّ تدبُّره؛ يُحَصِّلُ من المنافع والمصالح الدنيوية



---

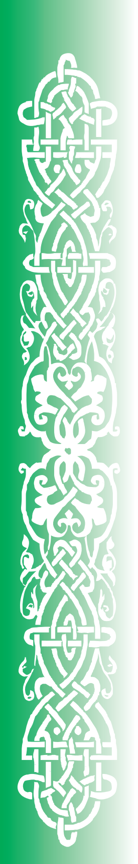
(١) مدارج السالكين (١/ ٤٥٢).

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٨٩).

والأخروية ما لا يعلمه إلا الله، ومِن أعظم ثمرات التدبر وفوائده أن يكون مَظِنَّة ما يلي:

* حصول الثبات على دين الله:

يقول ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه»[(١)]، فكتاب الله هو أعظم وسائل الثبات للمؤمنين، ولقد أنزل الله القرآن منجمًا مفرقًا، وجعل الغاية من ذلك هي تثبيت قلب النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَولا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[(٢)]، ثم أخبر أنه أنزله تثبيتًا للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[(٣)]، فالقرآن الكريم أعظم مصادر الثبات، ذلك أنه يزرع الإيمان ويقوي الصلة بالله، ولذلك دعانا الله سبحانه إلى التدبر فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[(٤)]، أي: وليتذكر أصحاب العقول السليمة ما كلفهم الله به[(٥)]، فالغاية هي التذكر والاتصال بالله تعالى!



---

(١) الموطأ برواية يحيى الليثي (٢/ ٨٩٩)، قال الألباني: رواه مالك مرسلاً، والحاكم من حديث ابن عباس وإسناده حسن، وله شاهد من حديث جابر خرجته في (سلسلة الأحاديث الصحيحة – ١٧٦١).

(٢) الفرقان: ٣٢.

(٣) النحل: ١٠٢.

(٤) ص: ٢٩.

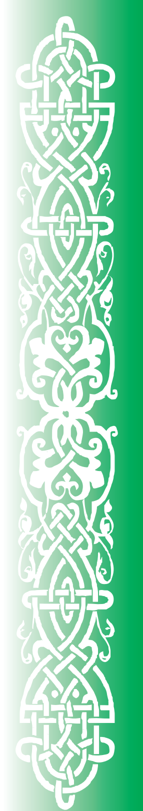
(٥) التفسير الميسر (٨/ ١٨٥).

* تحقيق صحة الأعمال ثم قَبولها:

يقول العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد تبين من الكتاب والسنة أن العمل حتى يكون صالحًا مقبولًا يُقرب إلى الله سبحانه فلابد من أن يتوفر فيه أمرانِ هامَّانِ عظيمان:

- أولهما: أن يكون صاحبه قد قصد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ.
- وثانيهما: أن يكون موافقا لشرع الله تبارك وتعالى في كتابه، أو بينه رسوله في سنته، فإذا اختل واحد من هذين الشرطين لم يكن العمل صالحا ولا مقبولا[(١)].

وهذا الأخير - أي الموافقة - لا يعرفُ إلا من خلال معرفة مراد الله لنتبعه، وإلا صار ابتداعًا من تلقاء أنفسنا وأهوائنا، ومراد الله لا يُعرفُ إلا بتدبر كلامه، ومن عرف مراد الله؛ أوشك أن يعمل به مخلصًا فيُكتبُ له القَبول.



* حصول اليقين الدافع للعمل:

يقول العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقينِ والعلم بأنّه كلام الله؛ لأنه يراه يصدِّق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا[(٢)]، ولهذا لم يملك إخواننا من الجن إذ سمعوه أن قالوا: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾[(٣)]، ولما سمِعه جمعٌ منهم فتدبروه وفهموه؛ عملوا مباشرة بما يقتضيه هذا الفهم، يقول

---

(١) التوسل (١/ ١٢).

(٢) تفسير السعدي (١/ ١٨٩).

(٣) الجن: ١-٢.

تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[١].

يقول صاحب الظلال رَحِمَهُ اللَّهُ: لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به، وهي حالة من امتلأ حسه بشيء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب، يدفعه دفعًا إلى الحركة به والاحتفال بشأنه، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام[٢].

ويقول الطبري في معنى قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٣]: ليتدبَّروا حُجَج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به[٤].



❋ حصول التذكرة الجالبة للمنفعة العاجلة والآجلة:

فقد حصر الله تعالى الفائدة من إنزال الكتاب فقال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٥]، وقال في موضع آخر: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾[٦]، وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾[٧]، وقال عن ابن أم مكتوم: ﴿أَوْ

---

(١) الأحقاف: ٢٩.

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٤٢٨).

(٣) ص: ٢٩.

(٤) تفسير الطبري (٢١/ ١٩٠).

(٥) ص: ٢٩.

(٦) المدثر: ٥٤-٥٦.

(٧) الأعلى: ١٠.

﴿ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾[1]، قال الطبري: يعني: يعتبر فينفعه الاعتبار والاتعاظ[2]، وقال المَاوَرْدِيُّ: وفي الذكرى وجهان: أحدها: الفقه، والثاني: العظة[3]، وقال ابن تيمية في المجموع: والنفع نوعان: حصول النعمة، واندفاع النقمة، ونفس اندفاع النقمة نفعٌ؛ وإن لم يحصل معه نفع آخر، ونفس المنافع التي يخاف معها عذاب نفع، وكلاهما نفع، فالنفع تدخل فيه الثلاثة، والثلاثة تحصل بالذكرى[4]!

وفوائد التدبر وثماره أكثر من ذلك، ولا يقوم بإحصائها أحدٌ، ولكن جِماعها وخلاصتها أن يقود التدبر صاحبه إلى مرضاة الله، وأن ينجيه من الهلكة بعذاب الله، ولا يتحصل ذلك إلا بمعرفة مراد الله في كتابه، ثم السير على منهاجه وسبيله بلا زيغ ولا نكوص، والله أعلم.





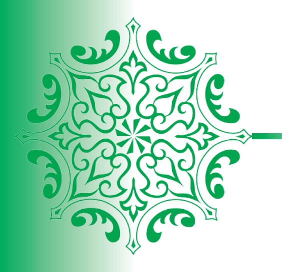
---

(١) عبس: ٤.

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٢١٩).

(٣) النكت والعيون للماوردي (٤/ ٣٨٣).

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير ٤/ ٢٢٧).



قاعدة جليلة لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الانتفاع بالقرآن

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا أردتَ الانتفاعَ بالقرآن؛ فاجمع قلبكَ عند تلاوته وسماعه، وألْقِ سمعَكَ واحْضَرْ حضورَ مَنْ يخاطبُهُ بِهِ مَنْ تكلمَ به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطابٌ منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [1]، وذلك أن تمام التأثير لَمَّا كان موقوفًا على مؤثِّرٍ مقتضٍ، ومَحلٍّ قابلٍ، وشرطٍ لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه؛ تضمنتِ الآيةُ بيانَ ذلك كلِّه بأوجز لفظٍ وأَبْيَنِه وأَدَلِّه على المراد:

١. فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ هو المؤثِّر.

٢. وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ هو المَحِلُّ القابلُ، والمراد به: القلب الحي الذي يَعْقِل عن الله؛ كما قال تعالى في سورة يس: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [2]، أي: حَيَّ القلبِ.

٣. وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: وجَّه سمعه، وأصغى حاسَّةَ سمعِهِ إلى ما

---

(١) ق: ٣٧.

(٢) يس: ٦٩-٧٠.

يُقال له، وهذا شرطُ التأثُّر بالكلام.

٤. وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شاهدُ القلبِ، حاضرٌ غيرُ غائبٍ، قال ابن قُتَيْبَةَ: استمعَ كتابَ اللهِ وهو شاهدُ القلبِ والفهمِ؛ ليس بغافلٍ ولا ساهٍ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير؛ وهو سَهْوُ القلبِ وغَيْبَتُهُ عن تَعَقُّلِ ما يقال له، والنظر فيه وتأمله.

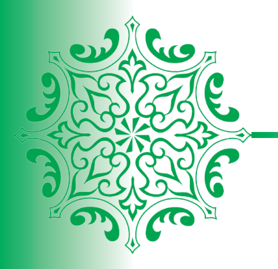
فإذا حَصَلَ المؤثرُ: وهو القرآن، والمَحِلُّ القابلُ: وهو القلبُ الحي، ووُجِدَ الشرطُ: وهو الإصغاءُ، وانتفى المانع: وهو اشتغالُ القلبِ وذُهُولُهُ عن معنى الخطابِ، وانصرافه عنه إلى شيءٍ آخر؛ حَصَلَ الأثرُ وهو الانتفاعُ والتذكرُ[1]!



---

(١) الفوائد (ص ٣).





الثَّوَابُ المُرَتَّبُ عَلَى عدد الأَحْرُفِ وغَيْرُ المُرَتَّبِ

لقد رَتَّبَ الشارعُ الحكيمُ على لسانِ الحبيبِ ﷺ ثوابًا على كل حرفٍ يُتلى من القرآن الكريم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنةٌ، والحسنةُ بِعَشْرِ أمثالها، لا أقولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ»(١).

فأيُّهما أفضلُ وأثوبُ: التلاوة بمرتبة التحقيق مع قلة مقدار ما يُتلى، أم التلاوة بمرتبة الحدر السريعة لتحصيل كثرة عدد الأحرف؟

إنَّ النظرَ إلى حديثِ ابنِ مسعودٍ مجردًا يَسُوقُ إلى أفضليةِ عددِ الأحرفِ على التدبر، لكن الفَاصِلَ هو فِعْلُ النبي ﷺ، ففي صحيحِ البخاريِّ عن قَتَادَةَ قال: سألتُ أَنَسًا عن قراءة النبي ﷺ فقال: «كان يَمُدُّ مَدًّا»(٢)، وقال شعبةُ: حدثنا أبو جمرة، قال: «قلتُ لابن عباسٍ: إني رجل سريعُ القِراءة، وربما قرأتُ القرآن في ليلةٍ مرةً أو مرتين، فقال ابنُ عباس: لأن أقرأ سورةً واحدةً أعجبُ إِلَيَّ مِن أن أفعل ذَلِكَ

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٧٧).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٩٢٤).

الذي تفعل!! فإن كنت فاعلا ولابُدَّ؛ فاقرأ قِراءَةً تُسْمعُ أُذُنَيْك، وَيعِيهَا قلبُك»[١].

ابن القيم رحمه الله يجيب:

يقول ابن القيم رحمه الله في كلامٍ واضحٍ نَفِيسٍ: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبُّر أجلُّ وأرفع قدرًا، وثواب كثرة القراءة أكثر عددًا، فالأول كمن تصدق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبدًا قيمته نَفِيسَةٌ، والثاني كمن تصدقَ بِعَدَدٍ كثيرٍ من الدراهم، أو أعتق عددًا من العبيد قيمتُهُم رخيصة[٢].

وهذا رسول الله ﷺ يقوم ليلة كاملة بآية واحدة يتدبرها، فعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: صلى رسولُ الله ﷺ ليلةً؛ فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٣][٤].

وَقَدْ أَقَامَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه عَلَى حِفْظِ الْبَقَرَةِ سِنِينَ، ذَكَرَهُ مَالِكٌ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[٥]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[٦]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾[٧]، وَتَدَبُّرُ الْكَلام دُونَ فَهْمِ مَعَانِيهِ غيرُ مُمْكِنٍ[٨].



---

(١) مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر المروزي (١/ ٧).

(٢) زاد المعاد (١/ ٣٣٩).

(٣) المائدة: ١١٨.

(٤) مسند أحمد بن حنبل (٥/ ١٤٩)، قال الشيخ شعيب الأرناءوط: إسناده حسن.

(٥) ص: ٢٩.

(٦) النساء: ٨٢.

(٧) المؤمنون: ٦٨.

(٨) شرح مقدمة التفسير (٣/ ١).



وروى القرطبي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورةَ أو نحوها، ورُزِقُوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآنَ - منهم الصبيُّ والأعمى - ولا يُرْزَقُونَ العملَ به[١].

وعَنْ أمِّ المؤمنين حَفْصَةَ بنت الفاروق رضي الله عنهما؛ أَنَّهَا قَالَتْ في طائفة من حديثٍ عند الإمام مسلم، عن الحبيب ﷺ: وَكَانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيُرَتِّلُهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا[٢]، أي أطولَ في زمن تلاوتِهِ لها لكونها تلاوة بطيئة؛ مِن السورة التي تَفُوقُهَا طولا إذا تلاها غيره لكونها تلاوة سريعة، والله أعلم.

اختيار الإمام النووي رحمه الله:

قال النوويُّ رحمه الله: والاختيارُ أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان من أهل الفَهَم وتدقيقِ الفكر؛ استُحِبَّ له أن يقتصرَ على القدر الذي لا يختلُّ به المقصودُ من التدبر واستخراج المعاني، وكذا من كان له شغلٌ بالعلم وغيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة؛ يستحب له أن يقتصر منه على القدر الذي لا يُخل بما هو فيه، ومن لم يكن كذلك فالأولى له الاستكثار ما أمكنه من غير خروج إلى المَلل، و لا يقرؤه هذرمة[٣].

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٤٠).

(٢) صحيح مسلم (٢/ ١٦٤).

(٣) نقله عن النووي ابن حجر في الفتح ٩/ ٩٧



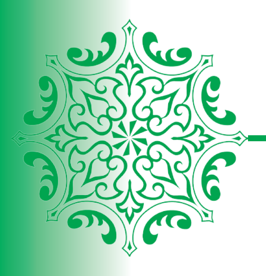
ما الفرق؟!

والظاهر من فعل السلفِ أنهم كانوا يقيمونَ على السورةِ من القرآنِ الكريمِ، يتعلمونَ ما فيها من الأحكامِ والعلمِ حتى تتشربها قلوبهم وعقولهم، ويُدْرِجُونَهَا في أعمالهم حتى تكون واقعًا تألفه جوارحهم سَلِيقَةً وتَطَبُّعًا، فإذا قرأ أحدُهُمُ السورة من الطِّوَال بعد هذا التدبر الطويل في ليلةٍ واحدةٍ كان تأثره بها شديدا، وتفاعله معها عظيما، كيف لا وقد أنفق في تدبرها السنين، وكابد في فهمها الليالي والأيام، وله عند كل حرف عِبْرَةٌ وعَبْرَةٌ، وفي كل كلمة فكرةٌ وخَلْجَة، أمَّا أن يكونَ كُلُّ عهدِهِ بها هو تلاوتُها هذرمةً في ليلةٍ واحدة، دون أن يكونَ سَلَفَ منه تدبُّرٌ لأجزائها وآيتها؛ فهذا هو المذموم.

ورَوَى الإمامُ أحمدُ بسنده عن عائشة رضي الله عنها؛ أَنَّهُ ذُكِرَ لها أنَّ ناسًا يتلون القرآن في الليلِ مرةً أو مرتين، فقالت: أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنتُ أقومُ مع النبي ﷺ ليلةَ التمام، فكان يقرأ سورةَ البقرةِ وآلِ عمرانَ والنساءِ؛ فلا يمرُّ بآيةٍ فيها تَخَوُّفٌ إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمر بآيةٍ فيها استبشارٌ إلا دعا الله ورَغِبَ إليه(١).



(١) المسند (٦/ ٩٢)، ونقله ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (١/ ٧٧).



من هو صاحب القرآن؟



وعند الإمام أحمد بسنده، عن النبي ﷺ: يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْقَ ورَتِّلْ كما كنت تُرَتِّلُ في الدنيا، فإنَّ منزلكَ عند آخر آية تقرؤها[1] ولا يوصف القارئُ بأنه صاحبٌ للقرآنِ إلا إذا كانَ ملازمًا له ملازمةَ الصاحبِ لصاحبه، وكان على خُلُقِ هذا الصاحبِ وهو القرآنُ، فالمرء على دين خليله، فإذا كان دَيْدَنُهُ وخُلُقُهُ القرآنَ؛ فهو صاحب القرآن، وإلا فليسَ بصاحبه، ولولا ذلك لقال ﷺ: يقال لقارئ القرآن: اقرأ... فتأمل!

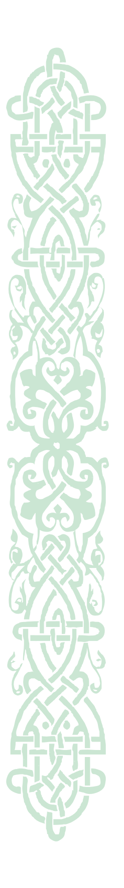
يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (صاحب القرآن هو العالم به، العامل بما فيه، وإن لم يحفظه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل به فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم)[2].

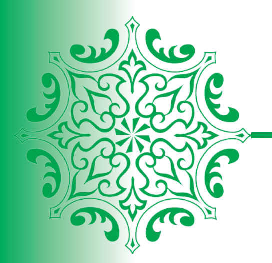


---

(١) المسند (٢/ ١٩٢).

(٢) كتاب الفوائد لابن القيم.





مَعَالِمُ عَلَى طَرِيقِ تَدَبُّرِ القُرْآنِ الكَرِيم

إن تدبرَ القرآن الكريم مَقْصِدٌ أساسيٌّ من مقاصد نزوله، فهو السبيل لفهم أحكامه، وهو الطريق لبيان غاياته ومقاصده؛ فلا يُفهم القرآن حق الفهم، ولا تُعرف مقاصده وغاياته حق المعرفة؛ إلا بالوقوف عند آياته وتدبرها حق التدبر، لكشف ما وراءها من حكم ومعان!.

وفي السنة الشريفة من حديث رسول الله ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله؛ يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم: إلا نزلت عليهمُ السكينةُ، وغشيتهمُ الرحمةُ، وحَفَّتْهُمُ الملائكةُ، وذكرهمُ الله فيمن عنده »(١)، فقد قَرَنَ الحديثُ بين التلاوةِ والمُدارسة، ورتَّبَ عليهِمَا معًا: السكينةَ والرحمةَ ورِفقةَ الملائكةِ وذِكْرَ الله لقارئي كتابه!.

ومع كثرة من يتلون القرآنَ الكريمَ - خصوصًا في رمضان - فإن الكثير منهم لا يزال يتلوه دون تدبر ولا فهم، الأمر الذي أدى إلى تفويت المقصد الأساس الذي لأجله أنزل القرآن، ألا وهو العمل بأحكامه، واتباع أوامره، واجتناب نواهيه.

---

(١) صحيح مسلم (٨/ ٧١).

ولعل الحديث عن كيفية التدبر وطرائقه تفصيلا أن يكون مَحِلُّهُ في غيرِ هذا المُصَنَّفِ، فقد صَنَّفَ فيه كثيرون من أهل العلم، ولكن لا بأس بأن نطوف بها على عجل؛ إشارة لمن أراد التذكرة، وهذه إطلالةٌ على بعضِ المعالمِ المهمةِ التي تساعدُ على تدبر القرآن الكريم:

أن يكون التدبرُ هو الأصل عند القارئ:

فالتدبر هو الأصل في تلاوة القرآن الكريم؛ حتى عند من يريد الحفظ، فلابد أن يكون له ورد من التدبر مع الحفظ، لا أن يحفظ القرآن الكريم أولا ثم يبحث عن التدبر، فقد حذر ابن عمر رضي الله عنهما بالغ التحذير من هذا المنهجِ المعكوس بقوله: ولقد رأيت رجالا يُؤْتَى أحدُهم القرآنَ قبل الإيمانِ، فيقرأُ ما بينَ فاتِحَةِ الكتابِ إلى خاتمتِهِ ما يدري ما آمره وزاجره، وما ينبغي أن يقف عنده منه[١]!

وكان هذا منهجَ النبيِّ ﷺ مع صحابته، فقد رُوي عن أبي عبد الرحمنَ السُّلَمِيِّ أنه قال: حدَّثنا الذين كانوا يُقرِئوننا القرآن؛ كعثمانَ بن عفانَ، وعبدِ الله بنِ مسعودٍ، وغيرُهما رضي الله عنهما: أنهم كانوا إذا تعلَّموا من النبي ﷺ عشر آياتٍ لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلَّمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً[٢]، ولهذا كانوا يمكثون في حفظ السورة الواحدة مدة طويلة.

الاستعداد للتلاوة ومراعاة آدابها:

ومن ذلك حُسْنُ اختيار المكان والزمان المناسبين، والتهيئة الذهنية والبعد عن



---

(١) بحث الواجب الدعوي على حملة القرآن (١/ ٢٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤١٠).

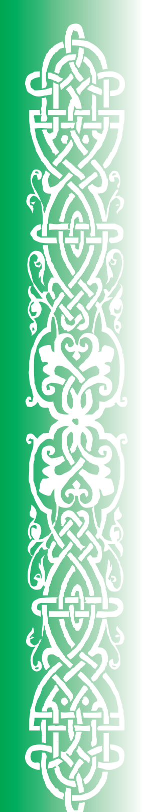
المشغلات، أما آدابُ التلاوة فكثيرة معلومة، لكنَّ مجرد استصحابها قبل الشروع في التلاوة مما يهيئ القلب لاستقبال كلام الله، ومن تهيئة القلب كذلك: أن تكون تلاوة القرآن الكريم بعد طاعة أو قُربة كصلاة فريضة، أو اغتناما للحظات قُربٍ من الله جل وعلا، كمن سمع موعظة وتأثر بكلام أهل الصلاح والخير، أو وقعت له حاجة ألجأته إلى الله تعالى وهو على فتور.

استحضار أهمية الفهم والتدبر:

واستحضارُ عِظَم ثوابِهما غيرِ المُرَتَّبِ على الثواب الموعود على عدد الأحرف، وهذا الاستحضار له فائدتان:

* **الأولى:** عدم انشغال البال بفوت الثواب المرتب، الذي ينصرف له الذهن عادة عند التلاوة.

* **والثاني:** جمع القلب على الانتفاع بما يتلوه اللسان، فيتواطآن معًا على التلاوة، فكأن اللسانَ يجمع الثواب المُرتَّبَ على عدد الأحرف، والقلبَ يجمع الثواب غير المرتب بالتدبر!

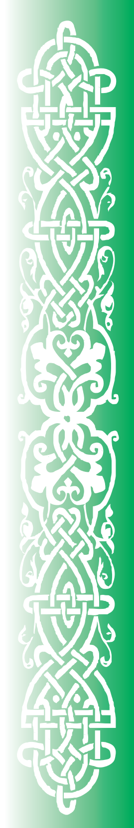


العكوف على قراءة القرآن مع التأمل والنظر والتفكر في آياته:

التفكرُ والتدبرُ والنظرُ والتأملُ يفتحُ لقارئ كتابِ الله كثيرًا من المعاني التي لا يمكن أن يكتسبها إلا من خلال ذلك.

ومن الأهمية بمكانٍ تسجيلُ الخواطرِ والمعاني لحظةَ ورودها، أو بعد الانتهاء من وِرْدِ التلاوةِ مباشرة، مع الحرص على تطبيق كل آية تمر أثناء القراءة في الواقع العملي بعد ذلك، قال ﷺ في بعضِ حديثٍ رواه مسلم: وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ

عَلَيْكَ[1]، وهذا كله مما يعين على توارد آيات القرآن على القلب آناء الليل والنهار بعفوية وتلقائية، يقول مُطَرِّفُ بن عَبْدِ اللهَّ بن الشِّخِّيرِ: إني لأستلقي من الليل على فراشي فأتدبر القرآن، وأعرض عملي على عمل أهل الجنة؛ فإذا أعمالُهم شديدة: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾[2]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾[3]، ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾[4]، فلا أراني فيهم، فأعرِضُ نفسي على هذه الآية: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾[5] فأرى القوم مكذبين، وأَمُرُّ بهذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[6]؛ فأرجو أن أكون أنا وأنتم يا إخوتاه منهم[7].

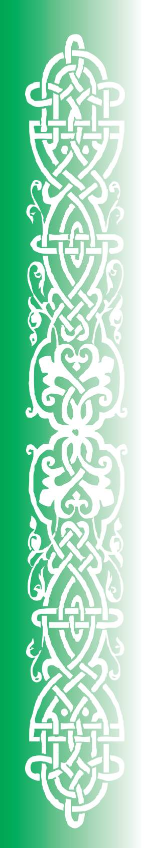


الرجوع إلى كتب التفاسير المعتمدة:

والنظر إلى أقوال أهل العلم الواردة فيها، خصوصا لمن لم يسعفه نظره المجرد وتأمله في القرآن الكريم دون الاستعانة بها، فقد حوت تلك الكتب كثيرًا من تفاسير السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم، كـ(تفسير ابن كثير، والطبري، والقرطبي) وغيرهم، فالرجوع إليها عون على تدبر آيات الكتاب وفهمه الفهم السليم. ولا مانع من الاطلاع على التفاسير المختصرة، خصوصا ما كان بهامش

(١) صحيح مسلم (١/ ١٤٠).
(٢) الذاريات: ١٧.
(٣) الفرقان: ٦٤.
(٤) الزمر: ٩.
(٥) المدثر: ٤٢.
(٦) التوبة: ١٠٢.
(٧) حلية الأولياء (٢/ ١٩٨).

المصحف، وذلك لبيان كلمة غريبة، أو تحديد معنى غامض، أو معرفة حكم خاص، كـ(زبدة التفسير) للشيخ محمد سليمان الأشقر.



معرفة أسباب النزول:

وتُعدُّ من الأمور المهمة في تدبر القرآن الكريم؛ لأن نزول كثير من الآيات قد ارتبط بمناسبات ووقائع معينة، ومن المهم أن تُفهم الآيات في ضوئها ليسهل تنزيلها على الواقع الحالي للمسلم، فالتاريخ يُعِيدُ نفسه، وتتداعى أحداثُه ووقائعُهُ في تشابهٍ يكادُ يكونُ كالتكرار.

تكرار الآيات -خصوصًا التي تلمس واقع القارئ- حتى يجد أثرها في قلبه:

وقد كانت هذه عادةَ السلفِ؛ يرددُ أحدُهم الآيةَ إلى الصباحِ، وقد ثبتَ عن النبيِّ ﷺ؛ أنه قام بآيةٍ يردِدُها حتى الصباحِ؛ وهي قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1][2]، فترديد الآية يسمح بتواردِ معانيها على القلب، وتقليبِ الفكر فيها على أوجُهِهَا، مع وصل الآية بواقعِ تاليها، وإنزالِ حكمها عليه، ليرى هل يوافقها أم يتنكبها؟!، قَالَ رَجُلٌ لِلْحَسَنِ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، إِنِّي إِذَا قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ وَتَدبَّرتُه، كِدتُ أَنْ آيَسَ، وَينقطعَ رَجَائِي، فَقَالَ: إِنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللهِ، وَأَعمَالُ ابْنِ آدمَ إِلَى الضَّعفِ وَالتَّقْصِيرِ، فَاعمَلْ، وَأَبْشِرْ[3].

القراءة في الكتب المتخصصة في التدبر:

لأنها تُطْلِعُ قارئها على تجارب سابقيه، وتحفِزُ همته للحاق بركبهم، وتعطيه

---

(١) المائدة: ١١٨.

(٢) سنن النسائي (٢/ ١٧٧).

(٣) ترجمة الأئمة الأربعة (١/ ٣١٦).

خلاصة ذلك، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر:

* (القواعد الحسان لتفسير القرآن) للشيخ عبدالرحمن بن سعدي.
* (مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة) د.خالد بن عبد الكريم اللاحم
* (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل) لعبد الرحمن حبنكة الميداني.
* (دراسات قرآنية) لمحمد قطب.
* (مفاتيح للتعامل مع القرآن) د. صلاح الخالدي.



تخلية النفس من صوارف القلب عن التدبر:

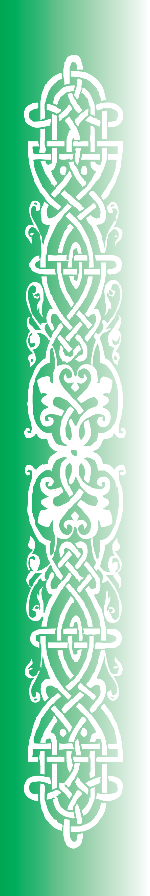
وهي كثيرة، لكنَّ أهمها:

* أمراض القلوب بأنواعها.
* الإصرار على الذنوب والمعاصي.
* العجلة وعدم الترتيل عند التلاوة.
* حَصْرُ معاني الآيات المتلوة في الذين نزلت فيهم كالمنافقين أو الكفار.
* قَصْرُ الخشوع والتفكر على آيات العذاب والوعيد.

روى أبو نعيم الأصبهانيُّ في الحليةِ بسنده، قال: حدثنا سُفيان بن عُيَيْنَةَ قال، قال عثمان بن عفان له: لو أن قلوبنا طهرت ما شبعت من كلام الله. وقال عثمانُ: ما أُحِبُّ أن يأتي عليَّ يومٌ ولا ليلةٌ إلا أنظر في كلام الله، يعني: القرآنَ في المصحف[1].

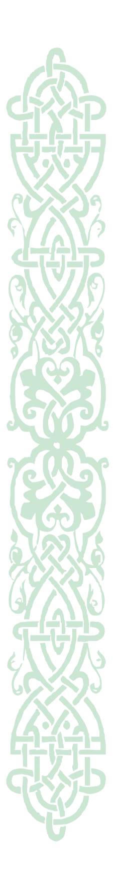


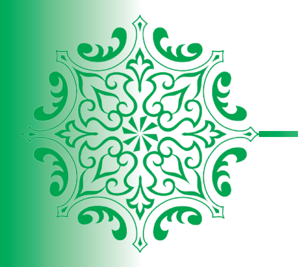
(١) حلية الأولياء (٧/ ٢٧٢).



الفصل الأول

مِن قِصَصِ الرسول ﷺ والسلفِ الصالحِ في تَدَبُّرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ





أقرأ عليك وعليك أُنزلَ؟!

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ «اقرأ علي» قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أُنزلَ؟ قال: نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأتُ سورةَ النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[١]، قال: حسبك الآن؛ فإذا عيناه تَذْرِفَان[٢].

وهذا الحديث عن أشرف الخلق ﷺ يعطينا الصورة الأكمل والأمثل للتأثر بالقرآن، وهي حالة من التأثر تشمل القلب والفكر والجوارح بحيث لا يبقى مجال للنفس أن تنشغل بشيء آخر، وفي نفس الوقت يبقى معها الترابط النفسي حاضرًا ولا يخرج بصاحبها عن المألوف.

اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي!

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلا قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي

---

(١) النساء: ٤١.

(٢) رواه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم برقم (٨٠٠).

إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾[١] الآيَةَ، وَقَوله فِي عِيسَى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٢] فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي! وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلا نَسُوءُكَ[٣].



◄ أَزِيزُ الرَّحَى

عن مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ[٤].

◄ شيبتني هود وأخواتها

قال أبو بكرٍ رضي الله عنه: يا رسول الله؛ قد شِبْتَ! قال: شيبتني هودٌ والواقعةُ والمرسلاتُ وعمَّ يتساءلونَ وإذا الشمسُ كورت[٥].

◄ كما نعتهم الله

قال عبد الله بن عروة بن الزبير رضي الله عنهما: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر: كيف

---

(١) إبراهيم: ٣٦.

(٢) المائدة: ١١٨.

(٣) صحيح مسلم (١/ ١٣٢).

(٤) صحيح أبي داود (١/ ١٧٠)، وصححه الألباني.

(٥) صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧/ ٢٩٧)، وصححه الألباني.

كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن؟ قالت: تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله[1].

◄ والله لا أنزعها منه

في قصة الإفكِ التي كان فيمن خاض فيها مِسْطَحُ بن أَثَاثَة، وكانت أمه بنت خالة الصِّدِّيق، وكان مِسْطَحٌ رجلاً فقيرًا، وكان الصديق ينفق عليه، فلما قال ما قاله في عائشة رضي الله عنها، ونزلت الآيات ببراءتها قال أبو بكر: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، قال أبو بكر: بلى، والله إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مِسْطَحٍ النفقةَ التي كان يُنفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا[3].

◄ ابن عباس رضي الله عنه

قال ابن أبي مليكة: صحبت ابن عباس من المدينة إلى مكة، وكان يصلي ركعتين فإذا نزلَ قامَ شطرَ الليلِ يُرتلُ القرآن حرفًا حرفًا، ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب، ويقرأ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[4]، ورُوِيَ



---

(١) شعب الإيمان للبيهقي - (٥/ ٧٢ - ٢٠٠٢)

(٢) النور: ٢٢.

(٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري (٨/ ٤٧٥٠ص ٣٠٦).

(٤) ق: ١٩.

عن شعيب بن درهم قال: كان في هذا المكان - وأومأ إلى مجرى الدموع من خديه يعني خدي ابن عباس - مثل الشراك البالي من البكاء[١].

كان عمر رضي الله عنه وقّافًا عند كتاب الله

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بنُ حِصْن بن حذيفة بن بدر فنزلَ على ابن أخيهِ الحُرِّ بن قَيْس بن حِصْن، وكان من النفر الذين يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وكان القُرَّاءُ أصحابَ مجلسِ عمر ومشاورتِه؛ كُهُولاً كانوا أو شُبَّانًا، فقالَ عُيَيْنَةُ لابنِ أخيه: يا ابن أخي؛ هل لكَ وجهٌ عندَ هذا الأميرِ فتستأذنَ لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذنَ لعُيينةَ؛ فلما دخل قال: يا ابن الخطاب؛ والله ما تعطينا الجَزْل، ولا تحكمُ بيننا بالعَدْل! فغضبَ عمرُ حتى هَمَّ بأن يَقَعَ بِهِ، فقال الحرُّ: يا أميرَ المؤمنينَ؛ إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٢]، وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عُمَرُ حين تلاها عليه، وكان وَقَّافًا عند كتابِ الله[٣].

مرض الفاروق لسماع آية!

عن هشام بن الحسين قال: كان عمر بن الخطاب يمر بالآية في ورده فتخيفه - وفي بعض الروايات: فتخنقه - فيبكي حتى يَسْقُطَ، ويَلزمُ بيتَه اليوم واليومين

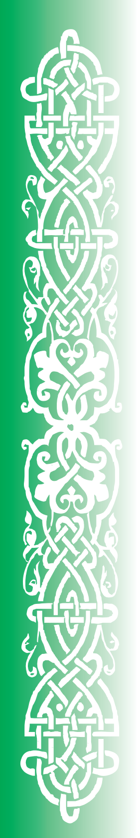


---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٥٢)، وانظر كذلك: البداية والنهاية (ج ٨ - ص ٣٣٤)، وتاريخ الإسلام للإمام الذهبي (٥/ ١٥٨).

(٢) الأعراف: ١٩٩.

(٣) صحيح البخاري (٦/ ٢٦٥٧).



حتى يُعاد، ويحسبونه مريضًا[١].

وقد سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا رجلا يتهجد في الليل ويقرأ سورة الطور، فلما بلغ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾[٢]، قال عمر: قسمٌ وربِّ الكعبةِ حقٌّ، ثم رجع إلى منزله فمرض شهرًا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه[٣].

◄ ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعيش القرآن في كل حركاته وسكناته، ومن ذلك أنه مرّ بِدَيْرِ راهبٍ فناداه: يا راهبُ؛ فأشرف، فجعل عمرُ ينظرُ إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين؛ ما يبكيك من هذا؟ قال ذكرت قول الله – عز وجل – في كتابه ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾[٤] فذاك الذي أبكاني[٥].

◄ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾

عن نافعٍ: كان ابنُ عمرَ إذا قرأ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٦] يبكي حتى يغلبه البكاء[٧].

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٢ / ٣٦٤)

(٢) الطول: ٨.

(٣) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار/ لابن رجب الحنبلي (ص ٤٨).

(٤) الغاشية: ٣-٤.

(٥) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير (٤/ ٣٨٥).

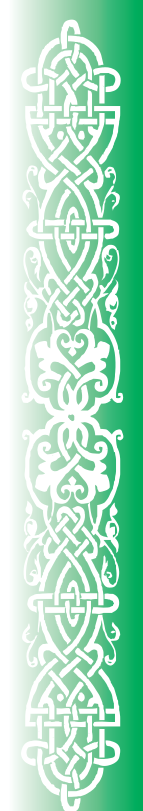
(٦) الحديد: ١٦.

(٧) الإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ١٨٧).

ورُويَ أن الفُضَيْلَ بنَ عِيَاضٍ كان شاطرًا يقطعُ الطريقَ بينَ أبيورد وسرخس، وكان سببُ توبتِهِ أنه عَشِقَ جارية، فبينا هو يرتقي الجدران إليها؛ إذ سمع تاليًا يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فلما سمعها قال: بلى يا رب، قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خَرْبَةٍ، فإذا فيها سابلةٌ، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نُصْبِحَ فإن فضيلا على الطريق يقطعُ علينا، قال: ففكرت وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام(١).

يقول إسحاقُ بن إبراهيمَ عن الفُضَيْلِ بعد ذلك: كانت قراءتُه حزينةً شهيةً بطيئةً مُتَرَسِّلَةً كأنه يخاطبُ إنسانا، وكان إذا مر بآيةٍ فيها ذِكْرُ الجنة يُرَدِّدُ فيها ويسأل(٢).

وصار الفُضَيْلُ من جِلَّةِ السلف حتى قال فيه إبراهيم بن الأشعث: ما رأيت أحدًا؛ كان الله في صدره أعظم؛ من الفضيل، كان إذا ذكر الله، أو ذُكِرَ عنده، أو سمع القرآن؛ ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه وبكى حتى يرحمه من بحضرته، وكان دائم الحزن، شديد الفِكْرَةِ، ما رأيت رجلاً يريد الله بِعِلْمِهِ وأَخذِهِ وإعطائِهِ ومنعِهِ وبذلِهِ وبغضِهِ وحبِّهِ وخصالِهِ كُلِّهَا؛ غَيْرَهُ، يعني: الفضيل(٣).



(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٢٣).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (ج ٨ – ص ٤٢٨)، حلية الأولياء (٨/ ٨٦)، وصفة الصفوة (٢/ ٢٣٨)، وتاريخ دمشق (٤٨/ ٣٩٦)، وتهذيب الكمال (٢٣/ ٢٩٢).

(٣) حلية الأولياء (٨/ ٨٤).

◄ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

هذا عبد الله بن عمر تدبر قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[١]؛ فكان إذا أعجبه شيءٌ من ماله يقربه إلى الله عز وجل، وكأنَّ عبيدَه قد عرفوا ذلك منه فربما لزم أحدهم المسجد، فإذا رآه ابن عمر على تلك الحال أعتقه، فيقال له: إنهم يخدعونك! فيقول: من خدعنا لله انخدعنا له![٢].

وكان له جارية يحبها كثيرًا فأعتقها وزوَّجَها لمولاه نافع، وقال: إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، واشترى مَرَّةً بعيرًا فأعجبه لما ركبه فقال: يا نافع أدخله في إبل الصدقة.

وأعطاه ابن جعفر في نافعٍ عشرة آلاف فقال: أَوَ خيرًا من ذلك! هو حُرٌّ لوجه الله، واشترى مرةً غلامًا بأربعين ألفًا وأعتقه فقال الغلام: يا مولاي قد أعتقتني فهَبْ لي شيئًا أعيش به؛ فأعطاه أربعين ألفًا.

واشترى مرة خمسة عبيد، فقام يصلي فقاموا خلفه يصلون فقال: لمن صليتم هذه الصلاة؟ فقالوا: لله، فقال: أنتم أحرار لمن صليتم له؛ فأعتقهم[٣].

◄ عليُّ بنُ الحُسين رضي الله عنهما

وهذا عليُّ بن الحسينِ يتخلق بصفات المتقين في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ

---

(١) آل عمران: ٩٢.

(٢) حلية الأولياء (١/ ٣٧٢).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ٦).

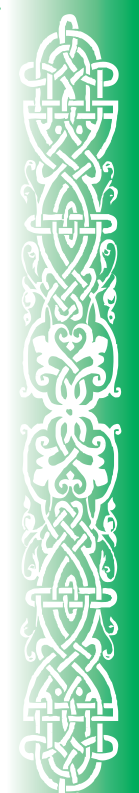
﴿يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[١]، قال عبد الرزاق: سَكَبَتْ جاريةٌ لِعليٍّ بن الحسين عليه ماءً ليتوضأ؛ فسقطَ الإبريقُ من يدها على وجهه فَشَجَّهُ، فرفع رأسه إليها، فقالت الجارية: إن الله يقول: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ ، فقال: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ فقال: عفا الله عنك، فقالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، قال: أنت حُرَّةٌ لوجه الله تعالى!

◄ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾

عن عبَّاد بنِ حمزة قال: دخلتُ على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾[٢]، قال: فوقفت عليها فجَعَلَتْ تستعيذُ وتدعو، قال عبَّاد: فذهبتُ إلى السوق فقضيت حاجتي، ثم رجعتُ وهي تستعيذُ وتدعو[٣]!

◄ إني قد أقرضتُ ربي

هذا أبو الدَّحْدَاحِ رضي الله عنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[٤] قال أبو الدَّحْدَاحِ: يا رسول الله: وإن الله يريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدَّحْدَاحِ، قال: أرني يدك يا رسول الله! فناوله يده، قال: إني قد أقرضت ربي حائطي (أي بستانه) فيه ستمائة نخلة. وأم الدَّحْدَاحِ فيه وعيالها، فجاء أبو الدَّحْدَاحِ فناداها: يا



---

(١) آل عمران: ١٣٤.

(٢) الطور: ٢٧.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٥ (٦٠٣٧)

(٤) البقرة: ٢٤٥.

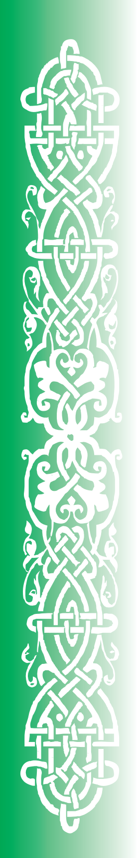
أم الدَّحْدَاحِ! أخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل، قالت: ربح بيعك يا أبا الدَّحْدَاحِ! ونقلت منه متاعها وصبيانها[١].

إحصاءٌ شديد !

عن البراء بن سليم قال: سمعت نافعًا يقول: ما قرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط من آخر سورة البقرة إلا بكى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾[٢] ثم يقول: إن هذا لإحصاء شديد[٣].

الخوف من العقوبة

عن عِكْرِمَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: جئتُ ابن عباسٍ يوما وهو يبكي، وإذا المصحف في حِجْرِهِ فأعظمتُ أن أدنو منه، ثُم لم أزل على ذلك حتى تقدمتُ فجلستُ، فقلتُ: ما يبكيكَ يا ابن عباس جعلني الله فِدَاكَ؟ فقال: هؤلاء الوَرَقَات، قال: وإذا هو في سورة الأعراف، وذَكَرَ أصحاب السَّبْتِ[٤]، ثم قرأ ابن عباس «فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس»، قال: فأرى الذين نَهَوْا قد نَجَوْا، ولا أرى الآخرينَ ذُكِرُوا، ونحن نرى أشياءَ ننكرها ولا نقول فيها. قال: قلت: جعلني الله فداك؛ ألا ترى أنهم قد كَرِهُوا ما هم عليه



---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج٤.

(٢) البقرة: ٢٨٤.

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي (١ - ٢٩٤)

(٤) يعني قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٣).

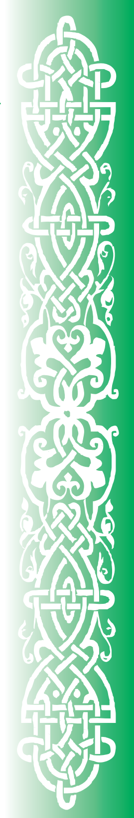
وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾[1]، قال: فأمر لي فكُسِيتُ ثوبين غليظين[2].

◄ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾

عن سمير الرياحي عن أبيه قال: شرب عبد الله بن عُمر ماءً مُبَرَّدًا فبكى فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ذَكَرْتُ آيةً في كتاب الله عز وجل: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[3]؛ فعرفتُ أن أهل النار لا يشتهون شيئًا شهوتَهُمُ الماءَ، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4][5].

◄ خامس الخلفاء الراشدين

وهذا عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتعايش مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[6]، فقد قيل له وهو على فراش الموت: هؤلاء بنوك - وكانوا اثني عشر - ألا توصي لهم بشيء فإنهم فقراء؟! فقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، والله لا أعطيهم حقَّ أحدٍ، وهم بين رجلين: إما صالح؛ فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح؛ فما كنتُ لأُعِينَهُ على



(١) الأعراف: ١٦٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير (٢/ ٣٤٢)
(٣) سبأ: ٥٤.
(٤) صفة الصفوة (١ / ٢٩٥)
(٥) الأعراف: ٥٠.
(٦) الأعراف: ١٩٦.

فِسْقِهِ، ولا أبالي في أيِّ وادٍ هلك، ولا أدعُ له ما يستعين به على معصية الله فأكونُ شريكَه فيما يعمل بعد الموت، ثم استدعى أولادَه فودَّعهم وعزَّاهم وأوصاهم بهذا الكلام ثم قال: انصرفوا عصمَكم الله وأحسنَ الخلافة عليكم.

قالوا: فلقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يَحملُ على ثمانينَ فرسًا في سبيل الله، وكان بعض أولاد سليمانَ بن عبد الملكِ مع كثرةِ ما تركَ لهم من الأموال؛ يتعاطى ويسألُ من أولاد عمر بن عبد العزيز، لأن عمرَ وَكَلَ ولدَهُ إلى الله عز وجل، وسليمانُ وغيرُه إنما يَكِلِونَ أولادهم إلى ما يَدَعُونَ لهم من الإرث؛ فَيَضِيعُونَ وتذهبُ أموالُهم في شهوات أولادهم!. لقد عمل عمر بن عبد العزيز في حقّ أبنائه بمضمون الآية الكريمة؛ فعصمَهُم الله سبحانه، وضَمِنَ لهم خير الدنيا والآخرة!

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[1]

عن قزعة قال: رأيت على ابن عمر ثيابا خشنة، فقلت له: إني قد أتيتُكَ بثوبٍ لَيِّنٍ مما يُصنع بخُراسان، وتقرُّ عينايَ أن أراه عليك، قال: أَرِنِيْهِ؛ فلمسه وقال: أحرير هذا؟ قلتُ: لا، إنه من قطن، قال: إني أخاف أن ألبسه، أخاف أكون مختالا فخورا، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2].

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا: كل لِبَاسٍ أَوجَدَ في المرءِ خُيَلاء وفخرًا فتركُه مُتعَيِّنٌ، ولو كان من غير ذهبٍ ولا حرير، فإنا نرى الشاب يلبس الفرجيةَ[3] الصوفُ بفروٍ

---

(١) الزمر: ٤٧.

(٢) الحديد: ٢٣.

(٣) الفرجية: ثوب واسع طويل الأكمام يتزيا به علماء الدين، انظر: المعجم الوسيط (٢/ ٢٧٠).

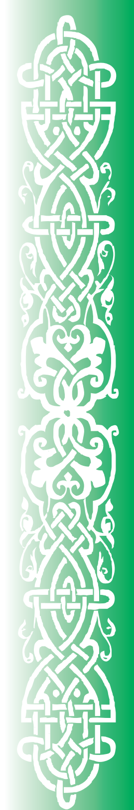
مِنْ أثمانِ أربعمِائةِ درهمٍ ونحوها، والكبرُ والخيلاءُ على مِشْيَتِهِ ظَاهِرٌ، فإنْ نصحته ولُمْتَهُ بِرِفْقٍ كَابَرَ، وقالَ: ما فيَّ خيلاءٌ ولا فخرٌ، وهذا السَّيِّدُ ابنُ عُمَرَ يَخَافُ ذلكَ علىَ نفسه[١]!

وجاء في ترجمة محمد بن المنكدر أنه كان ذاتَ ليلةٍ قائمًا يُصلي إذِ استبكَى، فكثر بكاؤه حتى فزع له أهله وسألوه، فاستعجم عليهم وتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازمٍ فجاء إليه، فقال: ما الذي أبكاك؟ قال: مَرَّتْ بي آيةٌ، قال: وما هي؟ قال: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[٢]؛ فبكى أبو حازم معه، فاشتد بكاؤهما.

وجاء عنه أنه جزع عند الموت، فقيل له: لم تجزعُ؟ قال: أخشى آيةً من كتاب الله ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ ، فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب[٣]!

قيل لسليمان بن طَرْخَانَ التَّيْمِيِّ البصريِّ: أنتَ أنتَ! ومَنْ مِثْلُكَ؟! قالَ: لا تقولوا هكذا، لا أدري ما يبدو لي من ربي عز وجل، سمعتُ اللهَ يقولُ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[٤].

روى الخطيب البغدادي بسنده قال: سمعت بكرا العابد يقول: سمعت فضيل ابن عياض يقول في قول الله عز وجل: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾؛



(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤).
(٢) الزمر: ٤٧.
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥٥).
(٤) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٠٠).

قال: أَتَوْا بأعمالٍ ظنُّوها حسناتٍ فإذا هيَ سيئاتٌ، قالَ: فرأيتُ يحيى بنَ مَعِيْنٍ بَكَى[1].

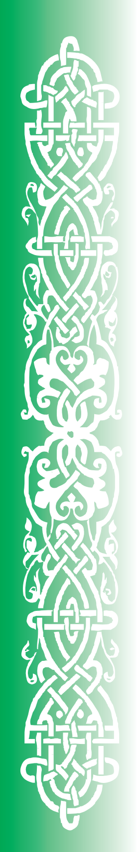
﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ ﴿ وَٱلطُّورِ ﴾ ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[2]؛ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ.

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّمَا كَانَ انْزِعَاجُهُ عِنْدَ سَمَاعِ هَذِهِ الآيَةِ؛ لِحُسْنِ تَلَقِّيهِ مَعْنَى الآيَةِ، وَمَعرِفَتِهِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ بَلِيغِ الْحُجَّةِ، فَاسْتَدْرَكَهَا بِلَطِيفِ طَبْعِهِ، وَاسْتَشَفَّ مَعْنَاهَا بِذَكِيِّ فَهْمِهِ[3].

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

روى الإمام أحمد: عن قيس بن حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعا رأسه في حجر امرأته فبكى فبكت امرأته، فقال: مايبكيكِ؟ فقالت: رأيتُك تبكي فبكيتُ، قال: إني ذكرت قول الله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[4]، فلا أدري أنجو منها أم لا[5]؟.



---

(١) تاريخ بغداد (١٣/ ٢٦٢).

(٢) الطور: ٣٥-٣٦.

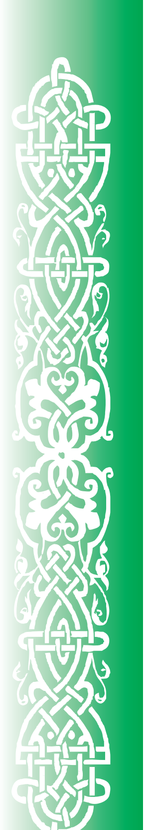
(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٣٧٤).

(٤) مريم: ٧١.

(٥) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير (٥/ ٢٥٢).

﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾

عن مَنْصُورِ بْنِ عَمَّارٍ قال: حججتُ حجةً؛ فنزلتُ سِكَّةً مِنْ سِكَكِ الكوفة، فخرجتُ في ليلةٍ مظلمةٍ فإذا بصارخٍ يصرخُ في جوفِ الليلِ وهو يقول: إلهي؛ وعزتِك وجلالِك ما أردتُ بمعصيتي مخالفتك، ولكن خطيئة عرضت لي أعانني عليها شقائي، وغرَّنِي سترك المرخى عليَّ، وقد عصيتك بجهدي وخالفتك بجهلي، ولك الحجة عليَّ، فالآن مِن عذابك مَن يستنقذني؟! وبحبلِ مَنْ أتصلُ إذا قطعتَ حبلك عني؟! واشباباه! واشباباه! قال: فلما فرغ من قوله؛ تلوتُ آيةً من كتاب الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾[(١)]، فسمعتُ حركةً شديدةً ثم لم أسمَعْ بعدها حِسًّا فمضيتُ، فلما كانَ من الغَدِ رجعتُ في مدرجتي فإذا جِنَازةٌ قد وُضعت، وإذا بعجوزٍ كبيرة، فسألتها عن أمرِ الميِّتِ – ولم تكن عرفتني – فقالت: هذا رجل – لا جزاه الله إلا جزاءه – مرّ بابني البارحةَ وهو قائمٌ يصلي؛ فتلا آية من كتاب الله، فلما سمعها ابني تفطرت مرارتُه فوقع ميتًا[(٢)].



﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾

جاء في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ابنه صالحًا قال: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: لَقَدْ جَعَلْتُ المَيِّتَ[(٣)] فِي حِلٍّ مِنْ ضَربِهِ إِيَّايَ، ثُمَّ قَالَ: مَرَرْتُ بِهَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَمَنۡ

(١) التحريم: ٦.
(٢) التوابين/ لابن قدامة (ص ٢٨٩).
(٣) يقصد الخليفة المعتصم، إذ ضربه في محنة خلق القرآن الكريم.

عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[١]؛ فَنظَرتُ فِي تَفْسِيرِهَا، فَإِذَا هُوَ مَا أَخْبَرَنَا هَاشِمُ بنُ القَاسِمِ، أَخْبَرَنَا المُبَارَكُ بنُ فَضَالَةَ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ الحَسَنَ يَقُولُ: إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ جَثتِ الأُمَمُ كُلُّهَا بَيْنَ يَدَي الله رَبِّ العَالمِينَ، ثُمَّ نُودِيَ أَنْ لاَ يقومَ إِلاَّ مَنْ أَجرُه عَلَى الله، فَلاَ يَقومُ إِلاَّ مَنْ عَفَا فِي الدُّنْيَا. قَالَ؛ أي ابن حنبل: فَجَعَلتُ المَيِّتَ فِي حِلٍّ، ثُمَّ قَالَ: وَمَا عَلَى رَجُلٍ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ اللهُ بِسَبَبِهِ أَحَدًا؟!

قامَ من مَرَضِهِ لسماع آية!

وروى ابن أبي الدنيا من حديث عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت عبد الله بن حنظلة يومًا وهو على فراشه وعُدْتُهُ من عِلته، فتلا رجلٌ عنده هذه الآية: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾[٢]؛ فبكى حتى ظننت أن نفسَهُ ستخرجُ، وقال: صاروا بين أطباق النار، ثم قام على رجليه، فقال قائل: يا أبا عبد الرحمن! اقعد، قال: منعني القعودَ ذكرُ جهنم؛ ولَعَلِّي أحدهم[٣].

تَمِيْمُ بنُ أَوْسٍ الدَّارِيُّ



وعن مسروقٍ؛ قال: قال لي رجل من أهل مكة: هذا مَقَامُ أَخِيكِ تميمٍ الداريِّ، لقد رأيتُه قامَ ليلةً حتى أصبحَ، أو كادَ أنْ يُصْبِحَ؛ يقرأ آيةً من كتاب الله، فيركعُ ويسجدُ ويبكي: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) الشورى: ٤٠.

(٢) الأعراف: ٤١.

(٣) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار/ لابن رجب الحنبلي (ص ٣٤).

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1][2].

محمدُ بنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ

روى أبو نعيم الأصبهانِيِّ قال: سمعتُ محمدَ بنَ كَعْبٍ القُرَظِيَّ يقول: لأن أقرأ في ليلةٍ حتى أصبحَ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[3]، والقارعة - لا أزيد عليهما، وأَتَرَدَّدُ فيهما وأَتَفَكَّرُ - أَحَبُّ إليَّ من أن أهدر القرآن هدرا[4].

الحسن البصري

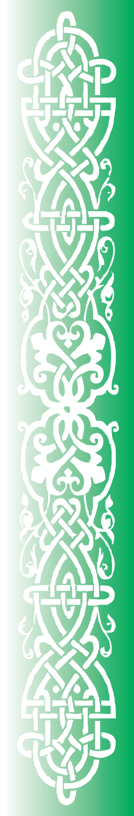
قال محمد بن جحادة: قلت لأمِّ ولدِ الحسنِ البصري: ما رأيتِ منه؛ أي من الحسنِ البصريِّ، فقالتْ: رأيتُه فتحَ المصحفَ، فرأيتُ عينيه تسيلانِ وشفتاه لا تتحركان[5].

وهل تركَ القرآن فصاحة لأحد ؟!

- قال الأصمعي لصَبِيَّةٍ: ما أفصحك!

- فقالت: يا عَمِّ، وهل تركَ القرآن لأحد فصاحة؛ وفيه آيةٌ فيها خَبرانِ، وأمرانِ، ونهيانِ، وبِشَارَتَانِ!؟.

- فقال: وما هي؟



(١) الجاثية: ٢١.
(٢) المعجم الكبير (٢/ ٥٠).
(٣) الزلزلة: ١.
(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٢١٤).
(٥) شعب الإيمان/ للبيهقي (٢/ ٤١١).

- قالت: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[(١)].

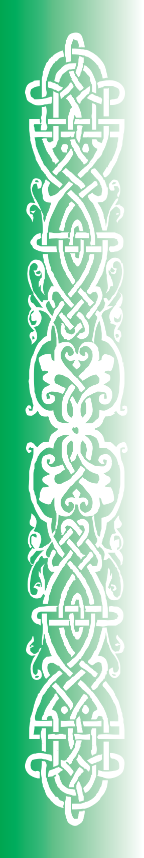
- قال الأصمعي: فرجعتُ بفائدةٍ، وكأن تلك الآية ما مرت بمسامعي!.

◄ ما هذا العبث ؟

عن يُونِسَ البَلْخِيِّ قال: كان إبراهيمُ بن أدهمَ من الأشرافِ، وكان أبوه كثير المال والخدم والمراكب والجنائب والبزاة، فبينا إبراهيمُ في الصيد على فرسه يُركِّضُه إذا هو بصوت من فوقه: يا إبراهيم ما هذا العبث؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[(٢)] اتق الله، عليك بالزاد ليوم الفاقة. فنزل عن دابته وأخذ في عمل الآخرة[(٣)].

◄ المخرج من كل غم

قال ابن الجوزي: ضاقَ بي أمرٌ أوجبَ غمًا لازمًا دائمًا، وأخذتُ أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه، فما رأيت طريقاً للخلاص، فعرضت لي هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾[(٤)]، فعلمتُ أن التقوى سببٌ للمخرج من كل غم، فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدتُ المخرج[(٥)].



---

(١) القصص: ٧.

(٢) المؤمنون: ١١٥.

(٣) سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٨.

(٤) الطلاق: ٢.

(٥) صيد الخاطر (٣٠٣).

◄ ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾

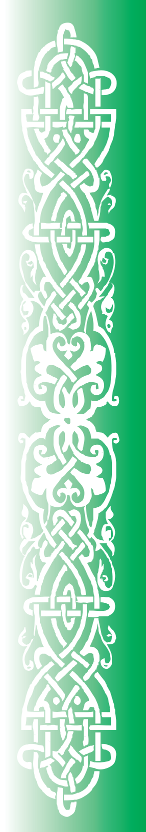
عن إبراهيمَ بن الأَشْعَثِ قال: سمعت فُضَيلاً يقولُ ذات ليلةٍ وهو يقرأ سورةَ محمد، وهو يبكي ويردد هذه الآية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾[(١)]، وجعل يقولُ: ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾، ويرددُ: وتبلو أخبارَنَا، إن بَلَوْتَ أخبارنا فضحتنا، وهتكت أستارنا! إنك إن بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذبتنا! ويبكي[(٢)].

◄ وما ينفعُني عَرْضُها ؟!

أخذ أحد الصالحين يبكي لما قرأ قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٣)]، فقيل له: لقد أبكتكَ آية ما مِثْلُهَا يُبْكِي! إنها جنةٌ عريضةٌ واسعةٌ، فقال: يا ابن أخي؛ وما ينفعُنِي عرضها إن لم يكن لي فيها موضع قدم[(٤)].

◄ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾

عن الحارثِ بن سعيدٍ قال: كنا عند مَالِكِ بنِ دِينَارٍ وعندنا قارئٌ يقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[(٥)]جعل مالكٌ ينتفضُ وأهلُ المجلسِ يبكونَ حتى انتهى إلى



---

(١) محمد: ٣١.

(٢) التوابين لابن قدامة – ص٢٢٤

(٣) آل: عمران: ١٣٣.

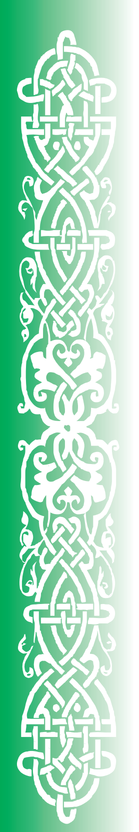
(٤) «صفقات رابحة»؛ خالد أبو شادي، ص ١٤٢

(٥) الزلزلة: ١.

هذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [1] فجعل مالكٌ – واللهِ – يبكي ويشهقُ حتى غُشِيَ عليه، فحمل بين القوم مغشيا عليه[2].

اللهم بلَى !

كان جَعْفَرُ بنُ حَرْبٍ يتقلد كِبَارَ الأعمالِ للسلطان، وكانت وظيفته تقارب وظيفة الوزارة، فاجتاز يوما راكبًا في موكبٍ له عظيمٍ فسمعَ رجلا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [3]؛ فصاح: اللهم بلى، يُكَرِّرُهَا، ثم بَكَى وتابَ وردَّ المظالمَ التي كانت عليه، وانقطع للعلم والعبادة حتى مات[4].



﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾!

كان الحسنُ البَصْرِيُّ رحمه الله يردد في ليلة قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [5]، فقيل له في ذلك، فقال: إن فيها لَمُعتبرًا، ما نرفع طَرْفًا ولا نردُّه إلا وَقَعَ على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر[6].

---

(١) الزلزلة: ٨.

(٢) صفة الصفوة (٣/ ٧١).

(٣) الحديد: ١٧.

(٤) صفة الصفوة (٣/ ٣٩).

(٥) إبراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨.

(٦) رهبان الليل/ سيد العفاني (٢/ ٧٣).

◀ اتق الله !!

خرج هارونُ الرشيدُ يومًا من مجلس الإمارة فاعترضه يهوديٌّ وقال له: اتق الله، فنزل هارون من على دابته وسجد على الأرض، فقال له أتباعه: إنه يهودي، قال هارون: اتق الله! ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[1][2].

◀ فأين القرآن إذًا ؟

وها هوَ الإمامُ أحمدُ –عليه رحمةُ الله– في مجلسه وبين تلاميذه؛ ويأتي سفيه من السفهاء فيسبُه ويشتُمه ويُقْذِعُهُ بالسَّبِّ والشتم، فيقولُ له طلابُه وتلاميذُه: يا أبا عبد الله؛ رُدَّ على هذا السفيه، قال: لا والله؛ فأينَ القرآنُ إذًا!؟ ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[3][4].

كان بإمكانه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يرد عليه وما مَنَعَ طلابه الانبراء له برد هو ما اعتادوا عليه من علمهم السابق بمنهج الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عدم مماراة هذا الصنف من الناس امتثالاً لهذه الآية العظيمة!.



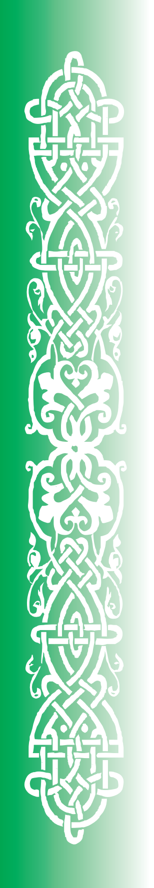


(١) البقرة: ٢٠٦.

(٢) ((تدبر القرآن – سعيد عبد العظيم – ص٦.

(٣) الفرقان: ٦٣.

(٤) هكذا علمتني الحياة ٢ – علي بن عبد الخالق القرني

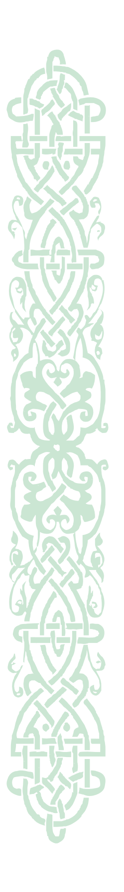


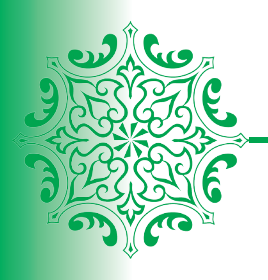
الفصل الثاني

قِصَصٌ مُعَاصِرَةٌ

وَقَعَ لأَصْحَابِهَا تَدَبُّرٌ في القرآن الكريمِ

وَعِظَةٌ بِآيَاتِه





قصص معاصرة

لقد تأثر سلفُنا الصالحُ بآيات الله، وكانوا حديثي عهد بنزولها، وكان القرآن قد نزل لتوِّهِ غضًّا طريًّا، وكان رسول الله ﷺ يحيا بالقرآن بين أظهُرِهِم. ولكن القرآن الكريم الذي أخرج لنا تلك النماذج المشرقة من سلف الأمة العظام؛ لم يفقد قدرته على التأثير على قارئيه في زماننا، ولم يُعْدَمْ مِنْ أهله مَن يتلوه حق تلاوته؛ ويستخرج منه كنوزه، ويستلهم منه توجيهه، ويسير على خطاه وهديِهِ.

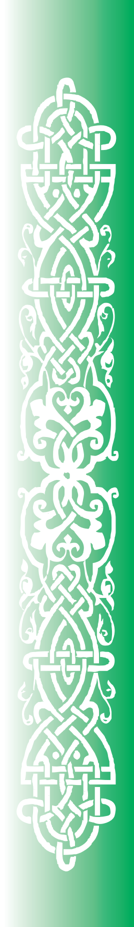
وهذا سردٌ لمواقف وقِصص من الواقع الحديث؛ تحدث بها أصحابها في بيان حالهم مع القرآنِ تدبرًا وعملا، وكيف كان أثر ذلك في تحولهم من الضلال إلى الهداية، ومن اتباع الشهوات والأهواء إلى الاجتهاد في عبادة رب الأرض والسماء، وكيف زالت الأكِنَّةُ التي كانت تُغطِّي عقولهم وقلوبهم فاستشعروا أحوالا وقربًا لم يكونوا بالغيها من قبلُ؛ رغم مرورهم على تلك الآيات مرارًا وتكرارًا، فتالله لقد أثمر ذلك في قلوبهم حلاوةً وإيمانًا لا يجدهما إلا من عاش مع القرآن كما عاشوا، وتدبره كما تدبروا!

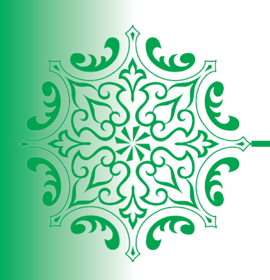
وسأسرد قِصصًا دون ذكر أسماء كاتبيها؛ فالعبرة بالقِصص لا بأسماء أصحابها، وقد قسمتها إلى قسمين:

الأول: قِصص تحكي تجارب أهل القرآن في تدبر آياته.

والثاني: قِصص تحكي تأملات ومواقف مع آيات القرآن.







قِصص تحكي تجارب أهل القرآن في تدبر آياته

◄ ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾[1]

هذه امرأة لم يرزقها الله ذرية، مَرَّتْ على ما استطاعت الوصول إليه من الأدوية الطبية والشعبية بلا فائدة، وكان زوجها ذات يوم يتحدث مع إمام المسجد فقال له: لِمَ لا تقرأُ سورة نوح بحضورِ قلبٍ، وتستغفرُ ما استطعت من الاستغفار؟

قالت: فجاء زوجي وأخبرني بذلك، ثم قال: ما رأيُكِ أن ننفذ هذه الوصية؟ فرحبتُ بما قالَهُ، وقرأنا سورة نوح بتدبر، وفيها قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾[2]، وأكثرنا الاستغفار والدعاء بإلحاح، وما هي إلا أشهرٌ حتى بدأتُ أشعر بأعراض الحمل، وذهبتُ إلى الطبيبة وكانت النتيجة أني حامل.

---

(١) نوح: ١٠.

(٢) نوح: ١٠-١٢.

﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾[1]

أحد الدعاة في مصر يتحدث عن قصة اعتقاله فيقول: لما دخلنا سجن القلعة وكان تحت الأرض؛ أُدخلنا إلى زنازينَ انفرادية، وكانت أصواتُ المعذَّبين وأنَّاتهُم تتعالى حولنا ليلا ونهارًا، وكانت الزنزانة مليئةً بالماء قيد شبرٍ ونصف، وكنا في زمهرير الشتاء، فلا مجال للنوم من أصوات التعذيب، ولا من الماء الذي يغمر أرجلنا، فكانت محنة شديدة، وما كان يخفف عنا إلا ذكر الله، وبقيةٌ من إيمانٍ أُشربناه في أيام الرخاء النسبي التي سبقت اعتقالنا.

وفي ليلة من الليالي وقد اشتدت عليَّ المحنة، وضاقت الزنزانة ضيقًا على ضيقٍ؛ رأيتُ فيما يرى النائم - وهو حلم يقظة - أنْ قد دخل عليَّ أحد الصالحين الذين أعرفهم، فاستبشرت برؤيته خيرًا، فسلَّمَ وسألني هل تحفظ سورة الأعراف، قلت: نعم، قال اقرأ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[2]، فلما قرأتُها - كأنما أنزلت لتوها وكأني لم أقرأها من قبلُ - ثبت الله بها قلبي، وسكَّن فؤادي، وحلَّتْ عليَّ رحمات كأنما أنام في بيتي



(١) الأعراف: ١٢٨.

(٢) الأعراف: ١٢٧-١٢٩.

على فراشي، فعجبتُ من أثرها، وصرتُ بعدها أقرؤها على إخواني كلما رأيت من أحدهم ضعفًا أو استسلامًا، والحمد لله الذي أحيانا بعد هذه المحنة وسلَّمَنا.

◄ مع الشيخ ابن جبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

موقف مؤثر يحدث به أحد طلبة الشيخ عبدالله بن جبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول:

كنا تحديدا في عام ١٤٢٠هـ؛ في درس بعد المغرب لفضيلة العلامة الجبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ على كتاب (شرح الزركشي)، وصادف أن كانت السماء عصر ذلك اليوم تُمطر مطرًا شديدًا لم تعهده العاصمةُ الرياض، واستمرّ المطر حتى موعد بدء الدرس، وقد أحسن إمام المسجد حين قرأ في الصلاة قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾[1].

وبعد الصلاة جلس الشيخ لدرسه، وكعادته: علّق قبل أن يبدأ على نزول المطر، وبيَّن أنه رحمةٌ من الله وفضلٌ، واستشهد بحديث الطائفِ: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فمن قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن بي كافر بالكوكب)[2]، ثم تلا الشيخُ الآيةَ التي قرأها الإمام، وظل يشرحها كلمةً كلمةً وأورد الكثير من القصص والشواهد حتى أذَّنَ المؤذن للعشاء.

فلما بلغ تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾[3]؛ وافَقَ شَرْحَهُ لها إرعادَ السماءِ رعدةً سُمع لها دويٌّ قويٌّ داخل المسجد، فأسهب في

(١) النور: ٤٣.

(٢) صحيح البخاري (ج ١ - ص ٣٥١).

(٣) النور: ٤٣.

شرحها، وفتح الله عليه بفتح عظيم حتى أتى بأقوال السلف وأشعار العرب، وعلته خشية، وخنقته عبرة، وهو ما لم يكن من عادته؛ إذ كان غالبا ما يتمالك نفسه وتأثر بعض طلبة الشيخ كثيرًا، وكان ذلك كله مع خرير ماء يُسمع سقوطه من على نوافذ المسجد، وعشنا يومها أجواءً رُوْحَانِيَّةً رائعةً عرِّفتنا حقا قيمة الماء، وإبداع صنع الله في السحاب، بما تعجز عن إيصاله آلاف الأفلام الوثائقية الحديثة، التي تصف نزول المطر بالصوت والصورة.



آياتٌ مخيفةٌ لمن تأمّل!

في جو هادئ ولحظات سكون؛ كنت في زاويةٍ أتلو كتاب ربي، وأتأمَّل ما فيه من عِظات وعبر، وما فيه من نداءات من الرحمن سبحانه لنا، كُنتُ أرتل قول الله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾[(١)].

فسمعتُ فجأة صوتًا عاليًا مخيفًا، فارتجفتُ وارتعدت فرائصي: ما الذي يحصل يا تُرى؟

أهي طائرة سقطت؟ ربما انفجار غاز، أو كهرباء! يا إلهي ما الذي يحصل؟ هل سأموت؟؟ لا لا أستطيع تخيل ذلك.

كِدتُ أفقد عقلي من شدة الخوف، لكن فجأة سكت الصوت! أخذت بعدها أتأمل للحظات!، الحمد لله لم يحدث شيء مما توقعت، ولا زلتُ على قيد الحياة، لم أعلم إلى الآن ما كان ذلك الصوت، لكن كلُّ ما أدركته هو ذلك الخوف الذي انتابني

(١) الحاقة: ١٣-١٥.

وكاد يقتلني، لا إله إلا الله، هذا صوت مخيف فقط وليس معه اهتزاز للأرض، ومع هذا فقد جُنَّ جنوني خوفًا منه، فيا ويح قلبي؛ ما حالي يوم القيامة؟ ما حالي عندما أسمع النفخ في الصور؟ ما حالي إذا اهتزت الأرض، وانشقت السماء؟ بل كيف بي إذا عُرِضتُ على ربي لا يخفى عليه شيء من أمري؟ عاودت قراءة تلك الآيات، لا إله إلا الله، آياتٌ مُخيفةٌ حقًا لِمن تأمّلها، ربِّ ارحم يوم العرض عليكَ ذُلَّ مقامِنَا، وثَبِّتْ على الصراط أقدامَنَا، ربِّ ارحم ضعفنا، وتولَّ أمرنا، واجبر كسرنا، آمين.



﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾

تحدث الدكتور عامر رضوي الطبيب المشرف على متابعة الشيخ ابن عثيمين في مرضه؛ عن آخر ساعة في حياة فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين فقال: كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرأ القرآن الكريم، وكان يغيب عن وعيه ثم يُفيق، ثم دخل في غيبوبة، وبعدها بساعة انتقل إلى جوار ربه الكريم، وقد سمعته يتمتم لصعوبة حالته الصحية في لحظات إفاقته، وعندما سألتُ أبناءَه عما يتمتم به الشيخ ذكروا لي بأنه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾[١][٢].

تَجْرُبَةُ مُعَلِّمَةِ الأَطْفَالِ

كنتُ أعمل مُعلمة لمرحلة الروضة والتمهيدي، وبدأتُ بعدها بخمسِ سنواتٍ أعتني بمعاني القرآن الكريم، وأتدبرُ قصار السور، وأربطُ الآياتِ بواقعي وواقع تلميذاتي، واستعملتُ مفاتيحَ التدبرِ العشرة الواردة في كتاب د.خالد بن

(١) وقفات في حياة الشيخ ابن عثيمين، لإحسان العتيبي ص٣٢.
(٢) الأنفال: ١١.

عبدالكريم اللاحم؛ فوجدت الفارق كبيرًا في نفسي وصغيراتي...

كنت أقرأ السورة في المنزل لنفسي وبترتيل وتمهل، مع الرجوع إلى ما تيسر من كتب التفسير؛ فوجدتُ الأثرَ ينعكسُ بلا تكلف عليِّ وعلى صغاري، وها هم قد تعايشوا مع الآيات وانفعلوا بمدلولاتها، وقد لمستُ التغيير في نفسي وشخصيتي بهدوء أعصابي وراحة بالي في بيتي ومع أولادي وبناتي داخل الحلقة وخارجها، كما لمست السكينة والهدوء والصبر على الأطفال، فلم يعد يعتدي بعضهم على بعض كما كانوا سابقًا.

لقد كانت أعمارُهم ما بين الرابعة والسادسة، وكنت أظن أن إدراكهم لمفهوم التدبر وتأثُّرهم به أمرٌ صعبٌ وبعيدُ المنال، ولكني فوجئت بأنهم يستوعبون ويتجاوبون بشكل كبير جدًا، كما تحسن وضع القراءة داخل الحلقة، وتحسن الانضباط، وزاد ثبات الحفظ، وكنت أظن أن القراءة بصوت عالٍ - كما اعتدنا - تساعد على الحفظ، فلاحظتُ العكسَ: أن القراءة بترتيل وتَرَسُّلٍ تجعل الطالبات أكثر تفاعلا مع الحفظ، فأين كنتُ من هذا الخير منذ زمن بعيد!؟.

ولا أنسى أن أوصي أَخَوَاتي المعلمات أولا بالإخلاص لله، وأدعوهن إلى الصبر والاحتساب في العمل، وأذكِّرهن أنه لابد من بذل الجهد في ربط الآيات بالواقع، ومراعاة أن الصغار لديهمُ القدرة على استيعاب أشياء لم يكن من الممكن استيعابها فيما سبق، وكلما صَدَقَ القصدُ وبَذَلَ الإنسانُ كل ما في وسعه جاء الحصادُ وفيرًا بإذن الله.





تَجْرُبَةُ مُعَلِّمَةِ التَّجْوِيدِ

بدأت حكايتي مع كتاب الله العزيز باهتمامي الكبير بحفظ أكبر قدر من السور، وكان همي وهدفي أن أختم القرآن بأي طريقة، فكنتُ أهتمُّ بالكمِّ لا بالكيف، ولم أكن أتعرف على معانيه لأكتشف المعاني والأسرار التي يتضمنها، ولكن بعدَ أنْ منَّ الله عليَّ بأخذ بعض الدورات، وقراءة بعض الكتب في فن التدبر؛ تَغَيَّرَ مقصودي.

ومما كان له الأثر الفعال في تَغَيُّرِ فهمي؛ كتاب د.خالد بن عبدالكريم اللاحم بعنوان (مفاتح تدبرالقرآن)، فقد لمست خلال قراءتي له كثيرًا من الفوائد التي انتفعت بها، فمنها أن أمرَ التدبرِ خلافُ التفسير الظاهر للآيات، وهناك معانٍ عظيمة لا تظهر إلا لِمَنْ منَّ الله عليه فأبحر في أعماق معاني القرآن.

عرفتُ كذلك أن للتدبر مفاتيح، وشرعتُ في تطبيقها، ومن ذلك: تكرار الآية وترديدها بتمعن وحضور قلب، وما قرأتُ آيةً بعد ذلك وكررتُها عدة مرات وتدبرتُها؛ إلا كان لها تأثير وتحريك لقلبي وعيني.

إن الذي يقرأ القرآن بقلبٍ حاضرٍ يدركُ جيدًا قيمةَ القرآنِ وعظمته، ويتحرك قلبه بلا شك، وكل ما أريد قوله أنني بعد أن أدركت أهمية التدبر، وأثره الفعال على القلب وعامة الجوارح؛ صِرْتُ أقرأُ الآيات على طالباتي بفهمٍ، وأعيش مع ما في الآية من معانٍ، وأقف حتى ولو مع آية واحدة فأحس بمعانيها، ويسهل توصيلها للطالبات، حتى أصبحن يستخرجن الفوائد من الآية بأنفسهن بعد قراءتها عدة مرات.

إذا كان المرء لا يفقه شيئا مما يقرأ، ولا يتأثر به؛ فكيف يعلِّمُ غيره ويؤثر فيه؟! إن فاقد الشيء لا يعطيه!

◄ تَدَبّرَ سورة عَبَسَ

فعرفَ الطريقَ وخطَّ المنهج!

(طارق) شابٌّ أمريكي من أصلٍ أفريقي، هداه الله إلى الإسلام فصار داعية إلى الدين الحنيف، وكنتُ قد سمعتُ من الأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس (العالِمِ السوداني الشهير) أن طارقاً يُسلِمُ على يديه أكثر من ثلاثمائة شخص أسبوعيًّا!

وقد شاء الله أن ألقى طارقًا هذا في موسم حجٍّ عام ١٤٢١هـ، إذ قدَّر الله تعالى أن يكون طارق أحد ضيوف الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود لأداء مناسك الحج، وكنت مشرفًا على أولئك الضيوف الأمريكيين في ذاك العام، وصحبَنَا في الحجِّ الدكتور جعفر شيخ إدريس لإلقاء دروسٍ ومحاضراتٍ عليهم باللغة الإنجليزية.

وكانتْ مفاجأةً للدكتور جعفر ولِي؛ أنْ كانَ طارق مع الضيوف، فلما رآه الشيخ قال لي: هذا هو الداعيةُ الذي حدثتك عنه، فأرجو أن تسمع منه مشافهة حتى يكون سندك في الرواية متصلا!

ففرحت بهذا فرحًا عظيمًا، واقترحت على طارق أن يشرح لنا ولكل زملائه الضيوف منهجه في الدعوة، وكان ذلك مساء الثامن من شهر ذي الحجة عام ١٤٢١هـ، فقال:

حينما أسلمتُ شعرتُ بعظمة هذا الدين القويم، وأثره على نفوس أهله،



وخالطني حزن شديد على حرمان الأمريكيين من هذا النعيم المقيم، فقررت أن أبذل قصارى جهدي لأنقل لهم بعض أنوار الإسلام لَعَلِّي بهذا أنقلهم من الظلمات إلى النور، ولكنني أدركت أني فرد، فماذا يجدي جهد فردي أمام طوفان الظلام؟

لكنني لما قرأت سورة عبس، بهرني قول الله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾[1]، فقلت في نفسي:



الناس صنفان:

- صِنْفٌ مُسْتَغْنٍ عن الدين، فلا تنفعه الذكرى، ولن يَزَّكَّى.
- وصِنْفٌ مُقْبِلٌ يريد أن يَزَّكَّى، وهذا - بلا شكٍّ - تَنْفَعُهُ الذِّكرى.

وهذا الصِّنفُ الْمُقْبِلُ - الذي يريد أن يَزَّكَّى - أعدادهم كبيرة جدًا، والجهد اللازم لتبليغهم رسالة الإسلام فوق طاقتي الشخصية، بل فوق طاقات دعاة المسلمين جميعًا، بل لكثرتهم لو اشتغل كل المسلمين فرادى وجماعات في إبلاغهم بالحق لكان ذلك فوق قدرتهم.

فقررت في نفسي أن لا أبذل طاقتي الدعوية إلا مع الذين يرغبون في معرفة الإسلام، فصرت إذا قابلت أحدًا حَيَّيْتُه وصافحته وسألته - وعيناي تتفرسان في وجهه لِسَبْرِ أثرِ سؤالي عليه - قائلا: هل ترغب في معرفة شيء عن الإسلام؟ فإن قال: (لا) قلتُ في نفسي: هذا مِمَّنِ استغنى، ولا يريدُ أن يَزَّكَّى، فيا طارقُ لا تُضْع

(١) عبس: ١-١١.

جهدك معه، وابحث عن غيره.

وإذا قال: نعم أريد أن أعرف؛ وقفت معه أُحَدِّثُهُ عن أسس الدين الحنيف، وعيناي ما زالتا تتفرسان في وجهه لِسَبْرِ أثرِ كلامي عليه، فإن رأيته غير منسجم مع كلامي سألته:

هل تريد أن أزيدك معلومات؟ فإن أبدى تململا أو عدم ارتياح، أو رغبة في الانصراف، وَدَّعْتُهُ راجيًا منه أن يبحث عن الحقيقة أكثر فأكثر، ثم افترقنا.

وإذا كان جوابه إيجابًا؛ عرضتُ عليه أن نجلسَ إمَّا في حديقةٍ أو مقهىً أو مطعم؛ فأزيده تفصيلاً، ثم أعطيه عنوان المركز الإسلامي، وأطلبُ منه أن نلتقي مساءً هناك، وأكثرهم يأتي على حسب الموعد ويُسْلِم.

قلتُ: ولما استوثقتُ منه عن عدد الذين يسلمون على يده؛ أكد أنهم فعلا يزيدون على الثلاثمائة أسبوعيًّا، وأكَّد أنَّ ذلك بفضل الله وبفضل كلام الله الكريم في سورة عبس!.



حينما زار ملك الموت بيتي!!

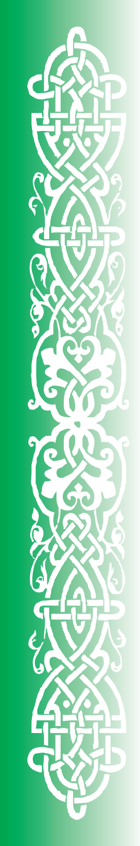
زار ملك الموت بيتي عندما أراد الله جل وعلا قبض روح فلذة كبدي، رحمه الله رحمةً واسعةً، وأفاض عليه من كرامته ورضوانه، ورأيت تلك الزيارة في رؤيا قبل تحقق المصيبة بثلاثة أيام، فكنت لا أعلم من سيأخذ؟ وهنا كان الابتلاء والامتحان!!

وبعد ذلك قضى الله أمره في ولدي، فعلمت علمَ يقينٍ أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن أبدًا ليصيبه!

اتجهت في هذه المحنة إلى كتاب الله ليسكن فؤادي المقطوع الفارغ من كل شيء

إلا من ذكر الله، فقد كان للمصيبة ألمٌ شديدٌ كالسيف يُقَطِّعُ أوصالي قطعةً قطعةً، فوجدت - والحمد لله - العلاجَ والراحةَ والسَّكينةَ والطُّمأنينةَ واليقينَ والصبرَ والرحمةَ والهداية وثمراتٍ أخرى كثيرة؛ وجدتُها في آيات الله وكتابه المبين.

كان لساني لا يَفْتُرُ من دعاء الله أن يربط على قلبي كما ربط على فؤاد أم موسى، واستحضرتُ في نفسي الآية التي تصف حال أم موسى وهي ترمي بثمرة فؤادها في البحر، يقول تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١].



وقد جاءني الغَوْثُ بحمد الله، فأحسست بالثبات والرِّبَاطِ على قلبي، واستشعرتُ السكينة والهدوءَ في قلبي وجوارحي، فَقَلَصَ دمعي، وازداد رسوخ عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر عندي، ومازلت أردد قول رسولنا الكريم صلي الله عليه وسلم: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون[٢].

مسلمٌ جديدٌ يُعظم شعائر الله

حدث الأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس بعد إحدى زياراته إلى كندا قائلا:

رأيتُ في المركز الإسلاميّ بـ(مونتريال) شابًا قد أسلم حديثًا، ويصلي جميع الصلوات جماعةً في المركز الإسلاميّ، وقد أخبرني إمامُ المسجد أن هذا الشاب منذ

(١) القصص: ١٠.

(٢) صحيح البخاري - (١/ ٤٣٩).

أن دخل في الإسلام وهو لا يترك فرضًا من الفروض مع الجماعة بهذا المركز صيفًا ولا شتاءً، حتى في شهور الثلوج والبرد الشديد، وأنه يقطع في سبيل ذلك طريقًا يستغرق منه كل مرة حوالي نصف ساعة.

يقول الدكتور جعفر : فكلمتُ ذلك الشاب لأقنعه بأنه في ذلك يشق على نفسه.

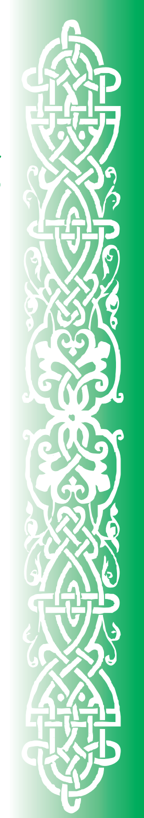
فقال لي: يا شيخُ؛ أمَا قرأتَ قول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[1]، والمساجد من شعائر الله، فأنا أريد أن أعظم شعائر الله تعالى.

قال الشيخ : فوالله لقد انقطعت حجتي، وسكت!

جَلْسَةُ القرآن العامرة في البيت!

كانت البداية قبل سبع سنوات تقريبًا، حيث قرر رب الأسرة أن نجتمع لنقرأ شيئًا من القرآن ونتدارسه، وكانت الجلسات غير منتظمة، كما أنها غير محددة بوقت معين، وذلك لظروف عمله وفترة وجوده في البيت فتارة بعد الفجر، وتارة بعد العصر، وأخرى بعد المغرب أو العشاء، وقد نجلس يوميًا أو يومًا بعد يوم، وقد تمضي أربعة أيام لا نجلس فيها لانشغاله، لكن اضطراب الأيام والأوقات لم يؤثر على إصرَارِهُ أن يستمر.

كانت الطريقة تتمثل في قراءةِ صفحةٍ من القرآنِ، وبدأنا من سورة الفاتحة ثم البقرة، نقرأ ثلاثَ مراتٍ أو أربعًا تبعًا لعدد الحضورِ من الأولاد، وقد تتقلص إلى



(١) الحج: ٣٢.

مرتين، ثم نبدأ في استعراض الألفاظ الغريبة التي يصعب عليهم فهمها، ثم يبدأ الوالد في شرح الآيات والوقوف على معانيها وتوضيح المراد منها، وكثيرًا ما كان يستخدمُ أسلوب الحوار والمناقشة بطرح الاستفهامات أو الأسئلة، ثم يُعَقِّبُ على إجاباتهم إن كانت صحيحة، أو يُصحح إن كانت غير ذلك، ثم نبدأ في استخراج الفوائد والعبر من الآيات، وقد يتخلل ذلك قصة من القصص أو سبب نزول لآيةٍ، وقد يكون لها علاقة باليوم الآخر فيستطرد في الحديث عن مشاهد القيامة وأحوال الآخرة والجنة والنار، وقد يتحدث في مناسبة أخرى عن الحساب والجزاء وعرض الأعمال وتطاير الصحف وهكذا، ثم يوظف هذه المعاني لاستجاشة مشاعر الأولاد، وتحريك ضمائرهم، وضرب الأمثلة المتنوعة، وأثر ذلك على السلوك.

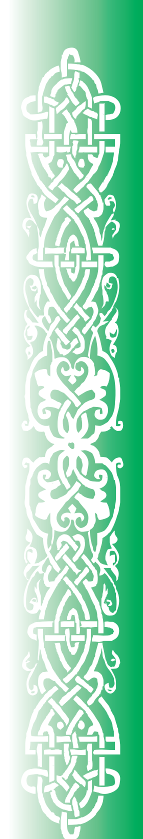


وفي كثير من الأحيان يركز على قضايا العبودية والإخلاص، وصور الشرك ويربط ذلك بواقع الأولاد وأمثلةٍ من حياتهم وتصرفاتهم، وقد يتحول الدرس في بعض الأحيان إلى خطبة وعظية من خلال الآيات، ثم يترك المجال لغيره للتعليق، وقد يطرأ استفسار أو لبس فيزيل اللبس والإشكال عنه، وإذا لم نجد إجابة وافية رجعنا فيما بعدُ إلى كتب أهل العلم، وربما لبعض أهل العلم أنفسهم في بعض القضايا العلمية الخاصة.

لقد لمست أثرًا طيبًا من هذه الجلسات، وخيرًا كثيرًا تمثل فيما يأتي:

- زاد تعظيم القرآن الكريم وهيبته في نفوس أبنائي.

- ازداد وعيُهم بأهمية القرآن في حياتنا وسلوكنا، وأنه المرجع الأول لكل شيء نريد أن نقوله أو نعمله.



- جَلسةُ القرآنِ تُعلم الانضباط في الوقت والحركة، وفي كيفية الجِلسة ذاتها، وتعلّمُ آدابَ قراءة القرآن، وحملَ المصحفِ بطريقة صحيحة.

- تصويب القراءة عمومًا وتحسين مستواها عند الأولاد.

- الوقوف عند النطق أو النواحي الإعرابية يزيد المستوى العلمي عند الأولاد من حيث لا يشعرون.

- طرح القضايا الكبيرة العقدية والتشريعية والسلوكية من خلال الآيات؛ يجعلُ هِمَمَ الأولادِ عاليةً، واهتماماتِهِمْ جادةً، ويَظهر هذا من حديثهم في الاجتماعات الأسرية حيث يلتقون بأقرانهم من البنين والبنات.

- طرح القضايا الفكرية وربطها بالواقع يُضْفِي مزيدًا من النضج على الأولاد، والتعرض لبعض القضايا الاقتصادية أو الطبية يعطيهم نظرة واسعة، وكل ذلك يولد عندهم حِسَّ التحرج من الحرام قليله وكثيره.

- صارت القضايا التي يحملها الوالدان واضحة عندهم إلى حد كبير.

- التأثير المباشر على سلوك الأولاد:

○ في الحرص على إقامة الصلاة، وأدائها على الوجه الأكمل.

○ في الالتزام بقيام الليل وصيام التطوع.

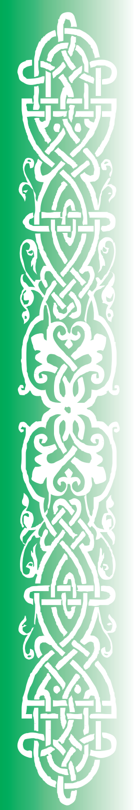
○ في التسامح فيما بينهم.

○ في تعزيز بعض الأخلاقيات الحسنة، كتجنب الألفاظ البذيئة أو الترفع عن السباب.

○ في ضبط النفس في ذلك.

○ في الكرم، والتصدق والبذل للفقراء والمساكين، حتى نشأ ما يمكن أن يسمى بصندوق التبرعات.

لا شك أن الخير كل الخير في استمرار مثل هذه اللقاءات على مائدة القرآن، وإن اعترضها بعضَ الأحيانِ شيءٌ من الملل والرتابة لأن النفوس تَمَلُّ وتنفر، إلا أنه يُعتاض عن ذلك بتجديد الأسلوب، ومراعاة بعض التغيير في الوقت والمكان والطريقة، فمن الأمور التي جددنا فيها أنه أصبح كل واحد منهم يشرح الآيات بحسب ما يفهمه، ويدور عليه الدَوْرُ مرة على الأقل، وهذا وإن كان ثقيلا عليهم في البداية؛ إلا أنه أكسبهم الجرأة والمقدرة على التعبير عما يريدون، والحمد لله رب العالمين.



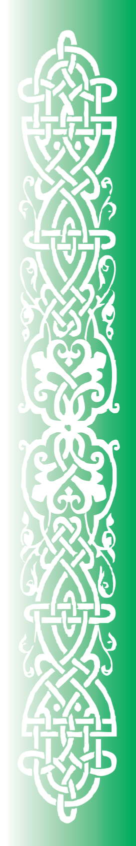
◄ تدارس وتفسير

هناك طريقة تعلمتها من معلمتي في التعامل مع القرآن الكريم ومدارسته؛ مُفادُها: ألا نقرأ معاني الآيات من التفسير مباشرةً عند تلاوتها، بل نقف على الآية بالتأمل والتفكر حتى نستنتج المعنى أولا، ثم نعود بعدها إلى التفسير لنرى هل كان فهمنا موافقًا له أم لا؟

وقد وجدت ثمرة هذه الطريقة في تدبري للقرآن الكريم، ووجدت أيضًا أن المعنى يثبت لديَّ بشكل أكبر بسبب تفكري فيه، وكنت أراجع التفسير بعدها بشغف لأتأكد من فهمي للآيات، مع ملاحظة ضرورة هذه المراجعة للتفاسير، وعدم الاعتماد على الاجتهاد الشخصي في الفهم لأن الشيطان يسعى جاهدا أن يُلبِّس المعنى على المؤمن.

أيضًا تدارس القرآن الكريم مع صويحباتي في حلقة نلتقي بها عند إحدانا،

أو عن طريق الشبكة العنكبوتية، نحدد آيات كل أسبوع، فنراجع حفظها ونتدبر معناها، وتحضِّر كل واحدة منا فوائد من تلك الآيات من مراجعَ مختلفة ثم نتدارسها معًا، كذلك الإطلاع على منتديات أهل التفسير والدراسات القرآنية علمتني الكثير، ولقد كانت تجربتي في حفظ القرآن الكريم - بفضل من الله - في مدة قصيرة نسبيا، ومع ذلك لم أستطع أن أثبت حفظي إلا بعد قراءة تفسير الآيات ثم تكرارها، وهكذا؛ ظهرت لي معانٍ عديدة في القرآن لم أكن لأدركها لو لم أطالع تفسيره وأتدبر معناه، كأسرار تشابه الآيات، وربط السور ببعضها، وغيرها من علوم القرآن التي لا يدركها من يقرأ القرآن فقط دون حفظ وتدبر.



◄ تجربة شخصية

عندما أود الاستمتاع والانتفاع بكلام ربي؛ أجلس في مُصلايَ بعد إحدى الصلوات المكتوبة، وأختار صلاةً ليس بعدها شغل لكي يكون ذهني فارغًا من الشواغل، ثم أقرأ الآيات بترتيل، وإذا مررت بآية لا أعرف معناها أنظر إلى هامش مصحفي المفسر، وإذا عرفتُ معناها وتأثرت بها كررتها حتى تدمع عيني ويَرِقَ قلبي، ثم أعرضها على حياتي وأسأل نفسي: هل عملت بها يا نفس؟ وإذا أغلقتُ المصحف وجلست إلى زوجي أو أحد أبنائي قرأتها عليهم، فيشاركونني التأمل فيها، وهكذا حتى لا أكاد أنساها، نفعنا الله بالقرآن العظيم آمين.

◄ رؤية شاملة للسورة

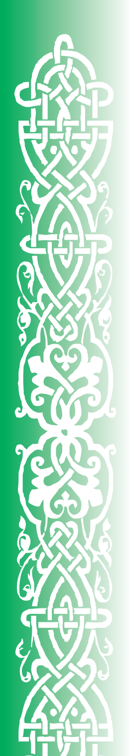
تجربتي مع التدبر كانت من خلال تدريسي لحلقة القرآن الكريم في سكن الطلاب بجامعة الملك سعود، فقد شرحت من سورة الفاتحة إلى الأنعام مع حزب

المفصل، ثم تخرجت فلم أكمل! كانت لي طريقة تعتمد على تكوين رؤية شاملة عن السورة وما المطلوب مني فيها، وتحديد ذلك باستخدام الخرائط الذهنية، ثم تجزيء السورة إلى مقاطع حسب المعنى، مع مراجعة أمهات الكتب الموثوقة في التفسير.

جمعهن التدبُّر!

نحن مجموعة من الجارات جمعتنا الأخوة في الله، وجمعنا السكن في نفس الحي، وقد حضرنا دورةً في تدبر القرآن الكريم ألقتها إحدى الداعيات في دار التحفيظ التابعة للحي، وتأثرنا جدا بهذه المحاضرة، وأدركنا مدى إهمالنا لكتاب الله، وأهمية تدبره، ومدى أثره في ترسيخ الإيمان بالله والعبادة، وعلى السلوك والتعامل مع الناس، وتعاهدنا على أن نتدبر القرآن الكريم معًا.

بدأنا نعقد جَلْسَةً أسبوعيةً كل يوم سبت في دار التحفيظ، من بعد صلاة العصر حتى أذان المغرب، وكان ترتيبُنا أن نتدبر ثلاثَ صفحاتٍ أسبوعيًا، على أن تعود كل واحدة منا إلى كتب التفسير التي وزعناها فيما بيننا، ثم نقف عند كل آية ونراجع ما قيل في كتب التفسير ونعلق، ونتفكر في الآية من جميع جوانبها، مراعين بذلك خطوات التدبر التي تعلمناها من المحاضرة، وكانت تعتمد على السؤال والعصف الذهني وربط الآيات ببعضها، والانتباه إلى تذييل الآية، ومناسبته للآية السابقة واللاحقة، وعدم الخوض في تفاصيل أغفلها القرآن الكريم لحكمة بالغة، وغيرها من الخطوات...



مكانة وأيُّ مكانة!

لا يمر شيءٌ على قلب الإنسان فيغيِّرُ فيه ويبدِّلُ مثلَ كلام الله عز وجل، وكنتُ

كلما مررتُ على الآيات التي يمتدح الله فيها أنبياءه وعباده الصالحين، وكيف علا شأنهم عنده سبحانه، كقوله تعالى في نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾[(١)]؛ ظهر لي إكرامه تعالى لنبيِّه ﷺ، فَلِعِظَمِ مكانته عنده سبحانه لن يعذب القوم وهو بينهم، فأقف متأملة لهذه الرِّفعة.

وأتأمَّل كذلك قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[(٢)]، وقوله عنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾[(٣)]؛ فأرى المولى جل وعلا يثني على توحيده عليه السلام لربه.

وأتأمَّل أيضا قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾[(٤)]، بل إنه تعالى يقول عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾[(٥)]، فما أروع ما ينبعث في نفسي بعدها من شعورٍ يردد بين أصداء قلبي: وهل يتمنى الإنسان شيئًا أكبر من أن يكون مرضيا عند ربه؟

ويشتد وقع مثل هذا الثناء على قلبي إذا كان قد خصَّ امرأة مثلي، فلطالما قرأتُ قوله تعالى عن مريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٦)]، فعلا؛ ما أجمل وما أعظم هذا الاختيار! وممن هو؟ من مالك



---

(١) الأنفال: ٣٣.
(٢) النحل: ١٢٠.
(٣) مريم: ٤١.
(٤) طه: ١٣.
(٥) مريم: ٥٥.
(٦) آل عمران: ٤٢.

الملك عز وجل، فهنيئا لها!.

ينبعث في نفسي سؤال واحد عندما أقف متأملة كل هذه المقامات من التشريف: ما هي مكانتي عند ربي؟ وهل هو راض عني؟

فأشحذ همتي في الاقتداء بهم، والوصول إلى أحوالهم التي جعلت لهم هذه الرِّفْعَةَ بفضل الله ومنته، وإن كنت أعلم أني لن أبلغ مبلغهم، ولكن لعل الله ينظر إلى قلبي برحمته فيرضى عني ويرفع شأني، ويُلحقني بهم في الآخرة.

شوَّقهم تدبرُ القرآن إلى علم النحو والبلاغة!

كُلِّفْتُ بتدريس مادة النحو لبعض طلاب كلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ووجدت في بداية التعليم نفورًا غريبًا من علم النحو، بل لاحظت ريبة وشكًّا في نفوس الطلاب تجاه مُعلمهم، فيسألون عن رأيي في القول بالمجاز، وإعراب بعض الحروف الزائدة في القرآن ونحو ذلك، وقد بلغَ الأمرُ غايته حينما دخلتُ إحدى القاعاتِ فوجدتُ طالبًا قد كتبَ على السبورةِ بيتَ الشعرِ المشهورِ الذي لا يُعرف قائله:

وَلَسْتُ بِنَحْوِيٍّ يَلُوكُ لِسَانَهُ　　　وَلَكِنْ سَلِيْقِيٌّ يَقُولُ فَيُعْرِبُ

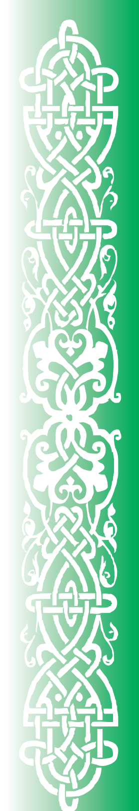
فأدركت أنني -هكذا- أَنْفُخُ في قِرْبَةٍ مشقوقة، ففكرت تفكيرًا عميقًا، وأيقنتُ أنه لا سبيل إلى إقناع هؤلاء الطلاب بأهمية علم النحو إلا بربطه بالقرآن الكريم، فقلت لهم يومًا: لديَّ سؤال، من أجاب عليه فله جائزة: لماذا قال

الله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾[1] ﴿ٱسْطَٰعُوٓا۟﴾ و﴿ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ ؟ فلم يعرف أحد منهم الجواب، فأعطيتهم مُهلة إلى المحاضرة التالية، ونقلت السؤال إلى القاعات الأخرى.

وفي المحاضرة التي بعدها سألتهم عن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾[2]، لماذا عَدَّى الفعلَ ﴿يَرَوْا۟﴾ بـ ﴿إِلَى﴾ ولم يقل: أو لم يروا الطير؟ ولماذا قال: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾؟.

وهكذا؛ كنا في بداية كل محاضرة نجيب عن سؤال المحاضرة السابقة، وفي نهايتها أُلقي عليهم سؤالا جديدًا!

وقد رأيت ثمرة هذا التدبر عليهم وعليَّ، أما الطلاب فقد أدركوا حاجتهم إلى علم النحو، حتى إن بعضهم صار يأتي إلى بيتي ليَدرس عليَّ علم النحو والصرف، وأما أثره عليَّ فقد اجتهدتُ في التنقيبِ عما أشار إليه العلماء والمفسرون من صور الإعجاز البياني، فاجتمعت لديَّ حصيلة طيبة منها قدمتها في برنامج إذاعي في إذاعة القرآن الكريم، ثم نشرتُها في كتاب بعنوان: نظرات لغوية في القرآن الكريم/ صالح بن حسين العايد.



غيِّر نفسك أولا!!

كنتُ أرى سنين عُمُرِي تذهبُ هدرًا دون أيِّ إدراكٍ مني، إذ كُنت في عزلة

(١) الكهف: ٩٧.

(٢) الملك: ١٩.

أقربُ للانطوائية، وكان بعض من حولي يُحاولون إخراجي من الجو الذي كُنت فيه، واستمرَّ الحال حتى أصبح عمري ١٩ سنة، وشيئًا فشيئًا بدأتُ أشعر أنني فعلا بعيدة عن الواقع وعن الحياة، فحاولتُ أن أغير نفسي فلم أستطع.

اسودَّت الدنيا بعدها في عينيَّ، وأحسستُ أنني انتهيتُ وَضِعْتُ للأبد، وكرهتُ نفسي واستسلمتُ في خنوع لواقعي، بل إنني أقنعتُ نفسي أن الناس من حولي لن يعودوا إلى تقبُّلي مرة أخرى، فأنا في نظرهم المنعزلة والوحيدة، وفي يوم قرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]؛ فعرفتُ أن التغيير لابدَّ أن يبدأ من نفسي، ففرحتُ جدًّا وقررتُ أن أُغيِّر نظرتي للحياة ولنفسي أولا، وبعدها ستتغيَّر نظرة الناس لي بالتأكيد، وبالفعل أصبحتُ أفضلَ ولله الحمد، صحيحٌ أنني لازلتُ في بداية الطريق، لكنَّ التغيُّرَ كان ظاهرًا جدًا عليَّ، والحمد لله.



ثلاث آيات لأصحاب الفتاوى الشاذة

كنتُ في ضيق وغمٍّ وأنا أقرأ وأسمع بين آنٍ وآخرَ فتاوى شاذة؛ تُحِلُّ حرامًا مما استقر على حرمته الواقع في بلاد المسلمين، فتتلقفُها وتبتدرها وسائل الإعلام المُغرِضَةُ فتنشرها، وتفرح بأصحابها فتُمجدهم وتنافح عنهم، وتمسي صورهم وكلماتهم مِلْءَ الشاشاتِ والصحف، وكنت إذا حزبني أمر أو غمني سوءٌ مِلْتُ إلى واحةِ القرآن الكريم أستظِل بأفيائها وأتنسم عبيرها، وذات يوم كنت أقرأ سورة الإسراء، فتسمّرَتْ عيناي على آياتٍ ثلاثٍ عجزتُ أن أجاوزهن: ﴿وَإِن كَادُواْ

(١) الرعد: ١١.

لِيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴾[1]، وصِرْتُ أعيد قراءتهن وأتفكر في معانيهن، وأقول في نفسي:

هل قرأهن فلان الذي أفتى بجواز الربا؟ وهل قرأهن فلان الذي أفتى بجواز الاختلاط؟

سبحان الله! لقد اتخذ الإعلامُ السيئُ كلَّ واحدٍ من هؤلاء خليلا!!

نسأل الله الثبات على الحق حتى الممات؛ فرسول الله ﷺ المؤيد بالوحي والعصمةِ كادوا يفتنونه عما أوحى الله إليه ليفتري على الله غيره، وسيتخذونه حينئذ خليلا، ولولا أن ثبته الله لقد كاد يركن إليهم شيئًا قليلا!

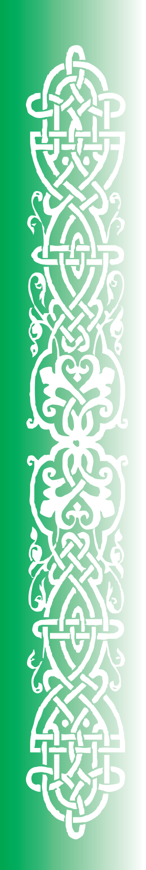
لكن ذاك الإنسان الضعيف غير المؤيَّدَ لا بوحيٍ ولا عِصمةٍ؛ افترى على الله – عند أول إغراء – ما ليس في شرعه؛ فاتخذوه خليلا فركن إليهم كثيرا وليس شيئا قليلا!

لكن هل تدبر هذا الضعيفُ الذي أفتى بغير شرع الله العاقبة التي يخشى عليه منها؟

ليقرأ عقابَ خيرِ البشرِ أولهم وآخرهم رسول الله ﷺ لو ركن إليهم شيئًا قليلا ﴿ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴾، وَاحَرَّ قلباه: ﴿ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ﴾، ثم لا يجد له على الله نصيرا، كل



(١) الإسراء: ٧٣-٧٥.



هذا لو ركن إليهم شيئًا قليلا، وهو صَفِيُّ الله من خلقه وخليله!

إذًا ما حال العبد المسكين الذي استخفه أصحاب الشهوات والشبهات فركن إليهم شيئًا كثيرًا، وافترى على الله غير وحيه وشرعه؟ إنه لن يكون أكرم على الله من رسوله صلى الله عليه.

نسأل الله الثبات على الحق حتى الممات.

عندما عادت إليَّ نفسي!!

كل ما أملكه لم يكن يتجاوز كونه عقلا شاردًا يتخبط بي، وهمًّا يؤرقني، وأنينًا في صدري يهز أضلاعي، ووجدت نفسي وحيدة على كثرة من حولي، ووجدتني ضعيفة جدًا، وما أعظمها من حقيقة تعلمتها من تجربتي، حقيقةُ أنني ضعيفة لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا! حقيقة نؤمن بها نظريًا، لكن شتان بين النظرية وبين أن نذوقها ونعيشها، حينها تتبدل المقاييس والمعايير في ذواتنا، ونعيد البناء على أساس متين، على أساس ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[1].

لجأتُ للقرآن الكريم حينها، وكيف لجأت؟! كانت البدايةُ بعدَ آيةٍ ترددت في ذهني كثيرًا ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[2]، وأخذتُ أضع لنفسي وِردًا أقرؤه ليطمئن قلبي المكلوم، فهدأت نفسي لمجرد القراءة، لكن ما زلت أشعر أني في طريقي لخيرٍ أعظم.

وفعلا؛ جاءتني مكالمة من أخت في الله، ذكرتني بالله وبِعِظَمِ أجرِ الابتلاء

---

(١) محمد: ١٩.

(٢) الرعد: ٢٨.

والصبر عليه، وقالت: لقد أراد الله بك خيرًا، فلربما أرادَ أن يزيدكِ من فضله بعد أن رأى منك نفعَ الناسِ بما تقدمينه لهم من خير، ثُمَّ قرأَتْ آيةً، وانتهت المكالمة!.

لم تكن تعلمُ ما فعلَتْ بي هذه الآية، لقد غيَّرت مجرى تفكيري حينها بشكل غير عادي، ووجدتُ في روحي انتعاشا غاب عني شهورًا، إنها قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(١)، يا الله! أبالصبر واليقين أنال هذا الشرف؟ حينها قلت بكل عزم وحزم: يا أقدامَ الصبر تحملي ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٢)، وكوني على يقين بكل ما يعدك ربك في كتابه، وفعلا قررت حينها أن أصبر وأصبر، وأن يكون عندي يقين أكثر بفرج الله سبحانه ووعده حيث يقول ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾(٣)، ويقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(٤)، ويقول جل وعلا: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾(٥)،ويقول تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(٦).

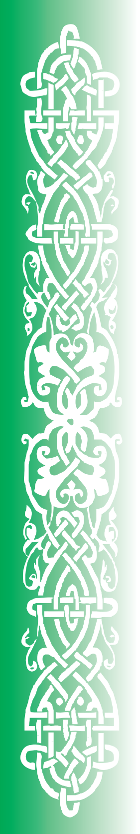
وحينما كانت الضغوط تحيط بي، ويتعالى حديث الناس من حولي بأنني سأفقد الكثير، كانت تأتيني آية تنزِلُ على قلبي نزول المطر على الأرض الجدباء القاحلة؛ فيزهر ربيع قلبي، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧



(١) السجدة: ٢٤.
(٢) البقرة: ١٥٣.
(٣) الطلاق: ٢.
(٤) الطلاق: ٣.
(٥) الشرح: ٥-٦.
(٦) الطور: ٤٨.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[1].

لقد كانت كل آية تأتيني ذكرى من الله، فكم يفتح التدبر للنفس من آفاق نحو السعادة والاستقرار النفسي، واللهِ إنها لحياة جديدة لقلبي، فخرجت من المحنة وقد خسرت في نظر كثير ممن حولي، وهذا للأسف فهمنا القاصر للمشكلات التي نعيشها، لكني والله قد ربحت، بل إن ربحي لكبير مع رحلة التدبر، لقد ربحت من هذه المحنة ذاتي التي وجدت طريقها أخيرًا!!



◄ تثبيتٌ من الله

كُنتُ إذا سمعتُ بالفتنِ من حولنا وكثرتها وكثرة المعاصي؛ أبحث عن وسائل للثبات على دين الله، ومع تأمُّلي في القرآن الكريم؛ وجدتُ هذه الوسائل فعلا في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[2]، فجعلتُ شعاري بعدها العمل بما أعلم، حتى حصلت على بعض الثمار، ومنها: معونة الله عز وجل لي على القيام بالطاعات بأسهل الطرق.

◄ وعد الله حقٌّ!

احتاجت أمي في يوم من الأيام لشيء يكلف بعض المال، وكنتُ ألمس رغبتها فيه وحاجتها إليه، وكان لدي بعض المال الذي رصدته لحاجة لي، لكنه قد يقضي

---

(١) الحجر: ٩٧-٩٨.

(٢) النساء: ٦٦-٦٨.

حاجة أمي، ومر في نفسي خاطر: لم لا أقدم حاجتها على حاجتي؟ ألم يأمرني الله ببرها؟ وراودتني نفسي فصارعتُها حتى قررتُ تقديمَ حاجتها على حاجتي مهما كلفني ذلك، وتذكرت قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[1] فقضيت حاجتها، وكلفني ذلك مبلغًا من المال، كلي أمل في رضاها بعد رضا الله، ولما فاجأتُها بالأمر بكت من شدة الفرح، فانشرح صدري لما وفقني الله إليه من برها وإدخال السرور عليها.

العجيب في الأمر أنه في اليوم التالي لقضائي حاجتها؛ تم تحويل مبلغ لحسابي مكافأة من جهة رسمية، والأعجب أنها كانت بمعدل الضعف وزيادة، فبكيت حينها لأنني تذكرت موعود الله عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

◄ ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾

حينما بدأتُ في حفظ كتاب الله تعالى قبل عشرين عامًا؛ كنتُ أقف أمام بعض الآيات التي تُؤثر في قلبي جدًا، وأكررها عشرات المرات، ثم أكتبُها على ورقة وأضعها أمامي متأملا كلماتها ومعانيها، فكنتُ أشعر أن هذه الآيات تُحدث تأثيرًا كبيرًا في قناعاتي وعقيدتي ومبادئي.

ومن تلك الآيات العظيمة التي كتبتُها وعلَّقتُها على جدار غرفتي قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ

(١) الحديد: ١١.



﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

لقد عالجَتْ هذه الآيةُ عندي أكثر من ٩٠٪ من الحزن والكآبة والقلق والخوف والتردد!!! ولكن كيف ذلك؟

لقد كنت أتعرض لإحباطات كثيرة نتيجة فشلي في عمل ما، أو خطئي في تصرف ما، أو تسرُّعي في كلمة أقولها ثم أكتشف أنني مخطئ، وعندما قرأتُ هذه الآية علمتُ أن أي ضرٍّ يصيبني إنما هو من الله تعالى، وهو أمر مُقَدَّرٌ قبل أن أُخلق، وهذا الضُرُّ لا يمكن لأحد أن يُذهبه ويكشفه إلا الله تعالى، فكنتُ أقول: لماذا أنا حزينٌ وقلقٌ ومحبِطٌ؟ إذا كان الله تعالى وهو أرحم الراحمين قد مَسَّني بهذا الضرَّ؛ فهو من سيكشف هذا الضر، فهل هناك أجَلُّ من هذا؟



لقد غيَّرت هذه القناعة الجديدة أشياء كثيرة في حياتي، فتحول الوقت الذي كنتُ أمضيه في التفكير فيما سبق من أخطاء ومشاكل؛ تحول إلى وقت مثمر أقرأ فيه القرآن أو أتعلم فيه أمرًا جديدًا من أمور العلم!

انظروا معي إلى هذه الكلمات: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾؛ كيف غيَّرت حياة إنسان بأكملها، وكيف غيرت الوقت من وقت ضائع إلى وقت مثمر وفعّال!

وماذا عن الجملة الثانية من الآية: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾ يا لها من كلمات مليئة بالرحمة والتفاؤل والحيوية، فقد كنتُ في كثير من الأوقات أعاني من قلق وخوف من أشياء سوف تحدث، أو أتخيل أنها ستحدث، وعندما قرأتُ

(١) يونس: ١٠٧.

هذه الكلمات الإلهية أدركتُ بأن أي خير سيصيبني لا يأتي إلا بإرادة الله عز وجل! ولن يستطيع أن يردَّه عني أحد إلا الله تعالى، فلماذا التردد في فعل هذا الأمر ما دام في رضا الله؟ بعدها؛ لم يعد لدي حسابات كثيرة أجريها قبل القيام بعمل ما، ماذا يعني ذلك؟ وتأمّل: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، إنها الجملة الثالثة من الآية الكريمة، وتعني أن الله تعالى يختار من البشر من يشاء ليصيبه بالخير.

◄ ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾

دائما كُنت أفكر في أولادي ومستقبلهم، وتراودني فكرة أنني قد أموت وأتركهم وهم أطفال صغار، وأفكر كيف سيكون حالهم من بعدي؟

ولكن ذات مرة وأنا أقرأ سورة الكهف، وعندما وصلت إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[1].

وقفتُ عندها كثيرا وتأملتُها، وأصبحتُ أرددها كثيرا في نفسي وأتساءل: ما الذي يعنيه أن يكون الشخص صالحًا؟ وما أهمية هذا الصلاح في حفظ الأبناء؟ وقررت بعدها أن أبحث عن تفسيرها، والذي ما إن قرأته حتى أثَّر في نفسي أثرًا بالغًا، وجعلني أقرر أن أصلح أولا من أحوالي؛ سواء على صعيد علاقتي بربي، أو علاقتي بالناس من حولي حتى أنتفع وينتفع بذلك أولادي من بعدي، وبدأت فعلا أقطف ثمار هذه الآية العظيمة، فأنا أشعر الآن بسعادة عظيمة في ظل عبادتي

(١) الكهف: ٨٢.



لربي، وثقتي الكبيرة به أنه هو الحافظ لأولادي وعائلتي من كل شر مادمت أعمل صالحًا.

◄ ميلاد جديد

كان ميلادي في السادسة عشرة من عمري!!

كان ذلك في ليلة من ليالي الصيف وبعد العشاء في بيت أخي الأكبر، إذ جلسنا في فناء داره وعلى ضوء أنوار أعمدة الشارع في ليلة لا أنساها أبدًا، وكان أخي يحدثنا عن الجنة ونعيمها، وأخذ الحديث بمجامع قلبي وكأني أسمعه لأول مرة، بل ربما فعلا أسمعه لأول مرة، فقد كنت في غفلة مُطْبِقَةٍ، وسألت أخي: أين أجد مثل هذا الكلام الجميل؟ فأشار إلى مكتبته الخاصة، ونظرت إلى الكتب في حيرة: أيَّهَا أختارُ؟

ولا زِلْتُ أتعجبُ إلى اليوم كيف وقع اختياري على كتاب (إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان) لابن القيم، مع كتابه الآخر (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)، وكتاب ثالث هو أحد أجزاء (الترغيب والترهيب) للمنذري.



أخذتها وذهبت إلى المنزل، وظَلَلْتُ أقرأ وأقرأ وتأثرت كثيرًا، وتولدت لدي الرغبة الشديدة في حفظ القرآن الكريم، حيث لم يكن معي منه وأنا في السادسة عشرة إلا بعضٌ من قصار السور مع ضعف في حفظها!! وبدأت الحفظ فعلا، إلا أنني شعرت بالحاجة المُلِحَّةِ إلى فهم آياتٍ كنت أقف عندها متسائلة عن معناها ودلالتها، وهنا بدأت مسيرة حياتي الجديدة حينما أمسكت كتب التفسير وبدأت أقرأ بفهم وتأثر، كنت أقرأ كثيرًا في تفسير (جزء عمَّ) وأنا خالية وأبكي، كنت

أعيش الآيات بتفاعل وأشعر أن الروح تسري في قلبي، وقبسَ النورِ يُشِعُّ في نفسي، ويزداد يومًا بعد يوم، إنه الحقُّ في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[(١)].

وعرفت طعم الحياة الحقيقية يوم عرفت ربي من خلال تدبر كلامه، فأحببته وآثرت محابَّه على كل شهواتي، فأقبلت على الصلاة والصيام والقرآن والقيام به والقراءة في الكتب النافعة، وتركت سماع اللهو ومتابعة الأفلام، وكل ما يمكن أن يمارسه من نشأ في أجواء الغفلة والبعد عن القرآن والعلم الشرعي، وكنتُ كلما مررت بآية تؤثر في قلبي فتحت كتب التفسير لأفهمها، ثم أكتبها في دفتر أو في ورقة أعلقها أمامي في مكان بارز.

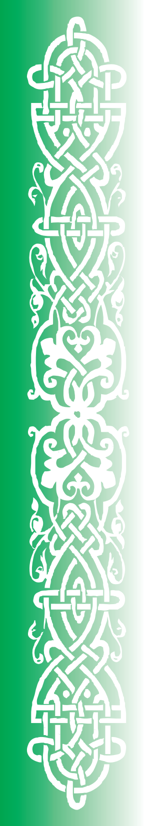
◄ ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾

كنتُ في العشرينَ من عُمُرِي يومَ تقدمَ لي الشاب الذي أحلم به: طالبُ علمٍ عليه سِيمَا الصلاحِ والاستقامةِ، ووافقتُ وقتها بعد استخارة واستشارة دون تقصٍّ واضح لأمور أخرى قد تَهُمُّ الناس عادة، ومضت الأيام وأنا أعيش فترة الخِطبة في ظل حلمٍ جميلٍ بالحياة في بيت طالب علم، إلى أن اقترب موعد الزواج، وتسامع الناس بالخبر في بلدتي الصغيرة، فتتابعت التحذيرات من الارتباط بجادٍّ متزمِّتٍ بعيد عن مباهج الحياة!.

اضطربتُ وحِرْتُ بين الثباتِ على المبدأ وتكملة المشوار، وبين الاستسلامِ

(١) الأنعام: ١٢٢.





والتراجعِ، ومضتِ الأيام وأنا بين الحيرة والقلق والدموع، إلى أن شاء الله جل وعلا، وفي لحظة لا أنساها بعد صلاة الفجر جلستُ أنتظرُ الإشراق، وأخذت المصحف وتلوت من سورة آل عمران، حتى توقفت فيها على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1]، ولم أكن أعرف تفسيرها في ذلك الوقت ولا فيمن نزلت، ولكني شعرت أنها تخاطبني، فكررتها مرات أتدبرها، وبعدها اتخذتُ قراري بالاستمرار في ترتيبات الزواج وأنا أردد: حسبي الله ونعم الوكيل.

واليوم؛ وبعد مُضِيِّ خمسةٍ وعشرينَ عامًا على زواجي؛ أرى تتمةَ الآيةِ في حياتي: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[2].

أهل الرجاء والخوف

كُنتُ دائمًا أتأمل كيف امتدح الله سبحانه وتعالى أهل الرجاء والخوف في كتابه، كما في قول الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[3]، فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى، فإنك إذا خِفته هربت إليه.

---

(١) آل عمران: ١٧٣.

(٢) آل عمران: ١٧٤.

(٣) السجدة: ١٦.

ومنها أيضا قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾[1]، قلتُ: سبحان الله! هم يبيتون ساجدين وقائمين ومع ذلك يخافون الآخرة ويرجون رحمة ربهم؛ لأنهم يشعرون أنهم لم يعملوا !فتأملوا كيف ذَكَرَ تعالى خوفَهم ورجاءَهم مع إتيانهم بهذه الطاعات.

◄ وللأطفال مع كتاب الله قِصص أيضًا!

الأطفالُ هم فطرةٌ سليمةٌ لم تتلوث، وفهمٌ بسيطٌ لم تعقِّده أحداث الحياة، وتربيتهم في ظل الحنيفية السَّمْحَةِ؛ تُنتِجُ آخر المطاف مثل هذه القِصص؛ لنعتبر بها ونتعظ، ونتعلم منها كيف نتعامل مع القرآن ونعيش معه:

◄ ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾



كنت عائدًا ذات صباح من السفر، وأردت أن أحضر هدية لأبناء أخي الصغار، وحِرْتُ في اختيارها حتى وجدتُ جهازًا يعرض القرآن كاملا بصوت عدد من القراء فاشتريته، ولما عدتُ كانوا في استقبالي فقدمتُها لهم، ثم صعدت للنوم كوني مُرهقا من السفر، ورُحت في نوم عميق.

وفجأة!! - وبعد زمن لم أستطع تقدير - سمعتُ أصوات بكاءٍ، اعتقدتُ في البداية أنني أحلم، لكنني بعد أن استيقظت فَزِعًا نزلت أسفل البيت لأصعق بابنَي أخي: «راكان» ذي السنوات الأربع، و«وجدان» ذات السنوات الست؛ وهما يستمعانِ للجهاز الذي أهديته لهما، وبالتحديد لآيةٍ في سورة الانفطار تقول:

---

(١) الزمر: ٩.



﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾[1]، صُعقت لبكائهما، ومكثت برهة وأنا صامت أراقبهما وهما يبكيان بحرقة، ثم خرجتُ عن صمتي لأسألهما: لماذا تبكيان؟؟

أجابني راكان بخوف وبراءة: عمي؛ النجوم ستطير والبحر سينفجر! وتسمَّرتُ في مكاني، ليُفاجئني صوت «وجدان» بكلمة هزتني من الأعماق: عمي صلِّ وحافِظْ على صلاتك، غدا تطير النجوم، ويا ويلك من ربي!

وقد كُنتُ فعلا لا أواظب على الصلاة حينها، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أبكي وأصيح من أعماقي ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ ماذا سأقول لربي؟؟ ماذا سأقول لربي؟؟ ولم تَفُتْنِي صلاةٌ في المسجدِ منذ ذلك اليوم بفضل الله.

◄ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

طفلة في الحادية عشرة من العمر، كانت تقول لأمها باستمرار: كلما مررتُ بآيات معينة من القرآن زاد خوفي، وتملَّكتني الرهبة، وأحسستُ أن الله قد يُنزل بنا العذاب إن قصَّرنا في حقه.

- سألتها الأم: وما هي هذه الآيات؟

- فأجابت الطفلة: هي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[2].

---

(١) الانفطار: ٢.

(٢) الرعد: ١٢-١٣.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾

هو طفل ككل الأطفال، عمره ست سنوات في الصف الأول الابتدائي، قامت أمه الصالحة بتربيته على كتاب الله عز وجل منذ نعومة أظفاره، فأحب كتاب الله وبدأ في حفظه، وفي يوم ذهبت أمه إلى المدرسة لأخذه، فوجدته منشغلا يكتب في ورقة معه، فنادته فأقبل إليها ومعه الورقة، وظنت الأم أنه كان يرسم في تلك الورقة، فأخذت الورقة منه على عجل، وقامت بطيها، فخاف ابنها أن ترميها، فقال لها: أمي؛ أمي! لا ترمي هذه الورقة.

- قالت له: لمَ؟

- قال لأن بها قرآنًا.

- فأخذت الأم تقرأ الورقة! ثم قالت: أنت كتبت هذه؟

- قال لها: نعم.

- قالت له في اندهاش: ولمَ كتبتها؟

- قال لها: يا أمي؛ إن صديقي الذي يجلس أمامي في الفصل ظلمَ صديقي الآخر ظلمًا كبيرًا، وقام بأذيته دون أدنى ذنب منه، فقمت بكتابة هذه الآية لصديقي الظالم لأذكره بالله وأخوفه منه.

كانت الآية هي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾[1].



(١) الأحزاب: ٥٨.

◄ ﴿كِتَـٰبًا مَّوۡقُوتًا﴾



كنتُ متهاونةً في أداء الصلاة رغم حرصي الشديد أن يحافظ عليها أبنائي، وقد راقبتني ابنتي ذات السنوات العشر دون علمٍ مني، فعلِمَتْ أنني أتهاون في الصَّلاة، ثم حدث بيني وبينها هذا الحوار الذي كانت فيه سببًا بعد الله في هدايتي:

– قالت لي: أمي؛ ما جزاء من ترك الصلاة؟

– قلت: كافر ومصيره إلى النار.

– قالت: ولماذا يترك الإنسان العاقل الصلاة؟

– قلت: ربما لأنه يعتقد أنه لا يوجد بعث ولا حساب، وأنه سينتهي بمجرد الموت.

– قالت: وهل هذا الاعتقاد صحيح؟

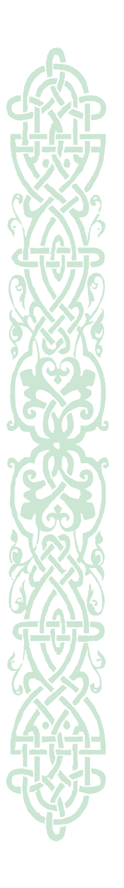
– قلت : كلا ! بل هو باطل، والصحيح أن هناك بعثًا ونشورًا وحسابًا وجزاءً وجنةً ونارًا!

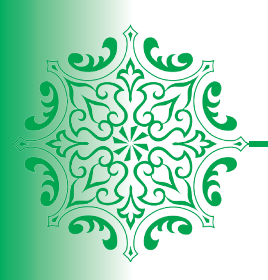
– قالت لي : يا أماه؛ وما فائدة هذا الاعتقاد إذا لم يظهر أثره في سلوك الإنسان وتصرفاته؟ وفي أدائه للصلاة ومحافظته عليها في أوقاتها؟ ألم يقل سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوۡقُوتًا﴾(١)!!

فتأملت كلامها فوجدت أنه الحق، وتأثرت به فأصبحت –ولله الحمد– بعد هذا الحوار من المُحافظات على الصلوات والسنن الرواتب، أسأل الله أن يثبتني على ذلك.

---

(١) النساء: ١٠٣.





القسم الثاني

قِصص تحكي تأملات ومواقف مع آيات القرآن

لساني سر شقائي!

كنتُ امرأةً متدينةً؛ لكني كنتُ كثيرةَ الفضولِ والأسئلة، فالمهمُّ أن أسألَ، لا للمعرفةِ ثم العملِ ولكنْ من بابِ الفضول، وكنت أتحدث عن الأشياء لمجرد الحديث فقط، وكثيرا ما كنتُ أمُرُّ بلا تفكرٍ أو تدبُّرٍ على قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[1]، وعلى الآية الكريمة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[2]، لا أدري أغفلة تلك أم هي حسن ظن بنفسي؛ عياذا بالله!

وبعد زواجي كنتُ أسألُ عن أشياءَ، وأتحدثُ عن أمورٍ لا ينبغي ذكرها حتى مع الزوج، كنت أفعلُ ذلك - فقط - لأبين له أني قد سمعت عن حيل بعض النساء على أزواجهن، ولم أُدرك نفسي إلا بعد أن أدخلتُ الشكَّ في قلبِ زوجي

---

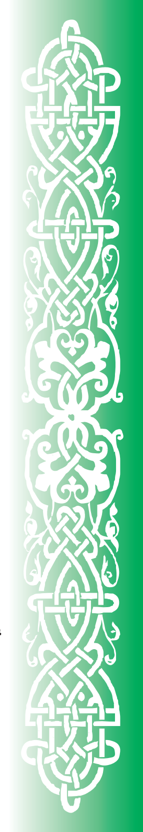
(١) ق: ١٨.

(٢) المائدة: ١٠١.

من جهتي، وتطور الأمر حتى صار يتهمني ويحتج على صحة اتهاماته بما قلته له، وبما سألته عنه!

واستمر تطور الأمور حتى ضاق بي الحال من ازدياد معاملته السيئة لي، حتى خرجت من بيتي إلى بيت أهلي، وهناك وصلنا للطلاق.

بعد الطلاق كنت أتهمه بأنه مجرمٌ وظالمٌ إذ فعل بي ما فعل بلا ذنب سبق مني، لكن عندما مررتُ بتفسير الآياتِ السابقاتِ، واستشرتُ واحدة من أهل الخبرة في حل القضايا الأسرية، وسمعَتْ مني ما صنعتُ؛ أشارت إلى لساني وقالت: هذا هو سر شقائك!



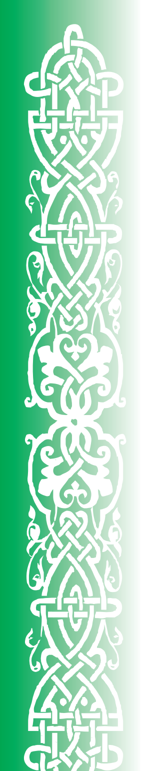
◄ توبة فتاة استمعت إلى كلام الله

كنتُ متمادِيةً في المنكرات والعصيان، ولَكَمْ حاوَلَتْ والدتي نُصحي وتذكيري، لدرجة أنها كانت تبكي أمامي؛ ولكن بدون فائدة!

ظلَلْتُ أسير في طريق مظلم كالح، أتخبط فيه بين الأوهام والخيالات، وعندما يُسدِلُ الليلُ ستاره الأسود؛ أفكر فيما سأعمله غدا، وعندما يشرق النهار أبلجَ واضحًا؛ أحمِلُ هَمَّ الليل وكيف سأقضيه، ليس لي همٌّ إلا الدنيا، وإضاعة الأوقات بدون فائدة، وتمر الساعات وأنا ما بين أغنية ومجلة، وفيلم، وهكذا ألبستني الغفلةُ من ثيابِها ألوانًا شتى.

وذات يوم مللتُ من ذلك الروتين اليومي، ومن نصح والدتي وتذكيرها لي بوالدي المتوفَّى رَحِمَهُ اللَّهُ وحرصه عليَّ، ودخلتُ غرفتي التي تضج بالأشرطة والمجلات والصور، وفتحتُ نافذة غرفتي فإذا بصوت إمام المسجد يهز مسامعي وهو يقرأ

من سورة ق، فما أشد وقع تلك الكلمات على نفسي الغافلة، وما أعظمها وهي تصف حال الإنسان عند الموت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ...﴾ إلى قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[1].



إنها الحياة الحقيقية، فما أقسى الموت! وما أشد غفلتي عنه! وهذا القبرُ الذي طوته الغفلة وغَيَّبَهُ النسيان في حياتي! وهذه الصلاة التي كانت مُجَرَّدَ عادةٍ، إنْ كنتُ متفرغةً أديتها وإلا تركتُها كغيرها من الفرائض! أما كتابُ الله فلا تَمَسُّهُ يدايَ إلا في المدرسة إن حضرتُ حصته، وهكذا؛ دق جرس الإنذار في نفسي مدويًا، وانهالت الأسئلة عليَّ من كل جانب!

يا إلهي! ماذا أعددت لسؤالك؟ ماذا أعددتُ للقبر وضمته، وللموت وسكرته؟ لا شيء أبدًا؛ لا رصيدَ لديَّ أنجو به، ولا زاد أتزود به سوى عشرات الأغاني الماجنة التي أحفظها!

يا إلهي؛ ماذا سأفعل؟ راح من عُمُري الكثير: ذنوب بالليل وآثام بالنهار! لابد من الرجوع إلى الله والاستعداد ليوم تشيب فيه الولدان، وتضع كل ذات حمل حملها، لابد من الاستيقاظ والعمل بجد وإخلاص، لعل الله أن يعفو عن الكثير، ويقبل القليل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أعادته آية !

أنا شاب مسلم من أسرة مسلمة متوسطة، هاجرتُ إلى كندا منذ عشر سنوات،

(١) ق: ١٦-٣٥.

وهناك؛ حيث يباح كل شيء، ويتم في وضح النهار مهما كان مخزيا؛ انزلقتُ إلى مستنقع الفواحش، وغَرِقْتُ في الرذيلة المحرمة إلى أقصى درجة، ثم جاءتني فرصةٌ للعمل في القاهرة بإحدى الوكالات التابعة لهيئةٍ دوليةٍ معروفةٍ، وفي القاهرة تعرفت على مجتمع من الشباب المنفلت البغيض، ونظرًا لما حباني به الله من وَسَامة وجاذبية في الحديث؛ فقد كانوا يرحبون بي أينما حللت!

وفي أحد الأيام كنتُ أتصفح الشبكة العنكبوتية؛ فدخلت أحدَ المواقعِ النصرانيةِ التي تَسُبُّ سيدي وحبيبي ﷺ، وأحسست بالدماء تغلي في عروقي حتى ليكاد رأسي ينفجر من الغيظ، ووجدت بالموقع رابطًا لبرامج بعض المنصرين؛ فهالني ما أسمع، إلا أنى أحسست عند استشهاده بإحدى الآيات القرآنية أن هناك تغييرًا مُتَعَمَّدًا في كلماتها، ولكني لم أكن متأكدا منه، فقررت أن أعود للآية التي يَستشهد بها للتأكد من صدق ما يطرحه من أدلةٍ على شبهاته، وأمسكت المصحف لأول مرة منذ خمس سنوات للبحث عن الآية المذكورة، ولكن قبل أن أصل إليها وقعت عيني على قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، ووجدت نفسي أكررها عدة مرات، وانتابتني موجة من البكاء حتى علا صوتي وأنا أبكي وأستغفر الله، وأعلنت التوبة، وانتظمت في صلاتي، وأرجو من الله أن يتقبل مني توبتي.

ثم بدأت بعد ذلك رحلة طويلة من الدراسة للقرآن الكريم، وكلما أنعم الله

---

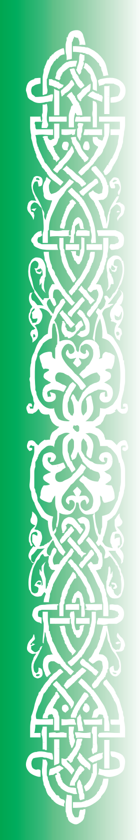
(١) الزمر: ٥٣.



عليَّ بالعلم من عنده؛ عرفت كم هو عظيمٌ ديننا، وكم هو عظيمٌ نبيُّنا الكريم ﷺ، كما عرفت كم هو ضئيل ووضيع كل من حاول الطعن فيهما!.

وليهنأ المنصرون ومن سار في رِكَابِهِم، فكم من مسلم مستهتر عاد إلى جنة الإسلام بفضل أكاذيبهم وافتراءاتهم، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[1].

﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾



أنا امرأة متزوجة ولدي طفلتان، وبسبب ظروف الحياة الصعبة، وبسبب دراستي الجامعية اندرجتُ في العمل بأحد البنوك الربوية، وأنا أحب بطبيعتي التفاني والإخلاص في العمل؛ فكنت من الموظفات النشيطات المتميزات والمحبوبات من الزبائن، لا أزعم أنني لم أكن أعلم أن العمل بالربا حرام؛ ولكن لم يكن لدي الوازع الديني القوي لِيَرْدَعَنِي، وبالرغم من ذلك كنت دائما أشعر أن هناك خطأً مَا، وأن مكاني المناسب ليس هنا، إلى أن تُوُفِّيَ أبي وبدأتُ بقراءة القرآنِ بتدبر فتأثرت جدا بقوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾[2]، فكانت هذه الآياتُ تصيبني بنوبةِ بكاءٍ شديدةٍ، وخوفٍ وهلعٍ كلما تصورت نفسي مع مَن سيؤتى كتابه بشماله، فكنت في داخلي أتمنى أن

---

(١) الصف: ٨.

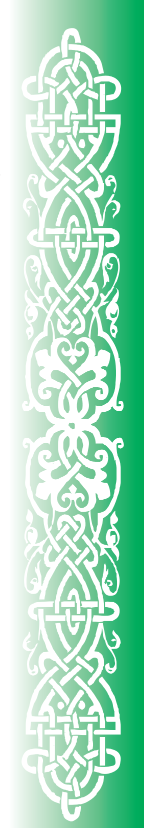
(٢) الحاقة: ٢٥-٣٢.

أصبح من الأخوات الملتزمات، ومع الوقت تكاثرت الديونُ الربوية عليَّ وعلى زوجي لبناء البيت فكنتُ مقيدة بها شَرَّ تقييد.

وفي إحدى الليالي تسللتُ من فراشي وفرشت سجادتي وصليت ورفعت يدي لله، وسألته أن يتوب عليَّ من العمل في البنوك، وأن يُدبر لي لأنني لا أحسن التدبير، وأن يختار لي لأنني لا أحسن الاختيار.

وعلمت فيما بعد بأنني في هذا الدعاء قد تبرأت من حَوْلِي وقُوَّتِي دون أن أشعر، وحصل بعد ذلك أن انتقلنا لفرع جديد لهذا البنك تم تأسيسه، فَبَدَأَتِ الزياداتُ والترقياتُ وشهاداتُ الشكرِ، وزاد حب الزبائن وتقدير المديرين لي، حتى أصبحتُ إن غبتُ عن العمل تتعطل المعاملات المنوطة بي، وأصبحتُ أديرُ مَنْصِبَيْنِ معًا في آنٍ واحد، وبعد ثلاثةِ أشهرٍ فقط من تأسيس الفرع الجديد شعرت فجأة بألم شديد في خاصرتي؛ فأخذني زوجي إلى المستشفى، وتم اكتشاف ورم خبيث (سرطاني) أدى إلى استئصال الرحم بالكامل، وكانت النتائج تقول بأن عُمُرَ الورمِ ثلاثةُ أشهرٍ فقط، فعلمتُ مباشرةً أن هذا هو ترتيب رب العالمين لي؛ لأن عُمُرَ المرضِ هو نَفْسُهُ عُمُرُ تأسيسِ الفرع الجديد.

كان أولُ ما فعلتُهُ أن كتبت استقالتي من البنك دون تفكير، وقد تعرضت لضغوط كثيرة من الأهل والمديرين في البنك، ونصحوني بعدم التسرع لأني واقعة تحت ضغط نفسيٍّ يمنعني من التفكير السليم، لكني كنت متيقنة بأن الله سيختار لي، وبعدها خضعتُ للعلاج الكيماوي، وكان زوجي -بعد الله تعالى- خيرَ عونٍ ورفيقٍ وصاحبٍ لي في هذا الابتلاء، وكان كتابُ الله بيدي دائمًا، فاستوقفتني فيه





آية في سورة الإسراء تقول: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾[1]، دَخَلَتِ الآيةُ قلبي وكأنها خطابٌ وتحذيرٌ من رب العالمين لي مباشرة، كي تحذرني الوقوع في مثل هذا الخطأ مرة أخرى، فكانت كلمة: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ تتردد على مسامعي كلما عاودني الحنين للعمل أو لزميلاتي أو لمكتبي، وبعدها فوجئتُ أن البنك قد أعطاني مساعدة مالية كبيرة، بالإضافة لحقوق نهاية الخدمة، وأن البنك الآخر قد أسقط عني نصف القرض، وكنتُ أسمع صوتا يتردد في داخلي يقول لي:

لا عذر لكِ الآن، لقد شفيناكِ ومنحناكِ فرصة جديدة للحياة، ورزقناكِ من المال الحلال ما يُسقط كل ديونكِ، وأعطيناكِ زيادة لتبدأ حياتك من جديدٍ؛ فإن عدتِ عدنا!

وكانت بداية التحول في حياتي، فبدأت بدراسة العلم الشرعي، وحضور مجالس الذكر؛ حتى أصبحت مديرةَ مركز نسائي دعوي ناجح. أسأل الله القبول.

واليومَ - وبعد مرور أكثر من أربع سنوات - لا زالت تلك الآية تتردد في مسامعي: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، حتى إن زوجي كان يكررها عليّ كلما آنس مني ضعفًا أو حنينًا لعملي السابق، أو كلما مررنا بالبنك فوجدني أتطلع إلى الداخل لأرى الموظفين الجدد الذين يجلسون مكاني، فيكرر علي: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فأبتعدُ مباشرة بنظري عن البنك، متذكرة مرضي والمحنة التي مررت بها، وإن عدت فسيعود، فأستغفر الله وأحمده.

---

(١) الإسراء: ٨.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾[1].

لقد كانت هذه الآية – ولا تزال – خطًّا أحمر بالنسبة لي، وجرس إنذار قوي لا يمكنني تجاوزه، فالحمد لله.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾

كنتُ أقرأ الآية الآتية وأسمعها، فتمر على لساني وأذني مرور الكرام:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]، حتى تفكرتُ فيها يومًا، فقلتُ:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ كيف ظهر ربَّاهُ؟ فأتتني الإجابة ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾.

وماذا بعدُ؟ ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، قلتُ: فقط ﴿بَعْضَ﴾ !! ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ !!

فكيف بنا إذا أذاقنا جزاء كل ما كسبت أيدينا؟

ثم جاء خِتامُ الآية ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، هل في جوفِ الابتلاءات والمحنِ التي نستحقها؛ رحمةٌ من الله لكي نرتدعَ ونتوب؟

ما ألطفكَ وما أحلمكَ ربنا، وما أرحمكَ بعبادك الضعفاء، اللهم خُذْ بنواصينا إليك؛ أخذ الكرام عليك.



(١) الإسراء: ٨.

(٢) الروم: ٤١.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾

يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾(١).

إنها رسالة لكلِّ أبٍ ومربٍّ وداعية: إذا كان الله يحول بين المرء وقلبه الذي بين جنبيه؛ فكيف بقلب ابنه أو تلميذه أو من يدعوه!

اللهم يا مقلب القلوب؛ ثبت قلوبنا على دينك.



﴿كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾

كنتُ طالبة في المرحلة الثانوية، وكنت أذاكر لأخي وابن أختي، ومع ضغط الدراسة عليَّ؛ كنتُ دائما وبمجرد أن أكرر شرح مسألة لهما أكثر من مرة أَمَلُّ وأصرخ فيهما، فإن تكرر عدم التركيز أرمي الكتاب في وجهيهما.

كنت أبكي وأتحسر على عصبيتي معهما بمجرد مغادرتي المكان، وأحاسب نفسي وأسألها: هؤلاء أطفال! فلماذا أعاملهم بهذه العصبية؟

وبالرغم من ذلك، كنتُ بمجرد أن أعاود المذاكرة لهما، أو حتى بمجرد علمي بنزول درجاتهم أعود إلى الصراخ والعصبية معهما.

وفي يومٍ قلت لأخي الصغير وأنا غاضبة: ابتعد، فلن أدرسك، وكان وقتها في الصف الثاني الابتدائي، فوجئت به يبكي ثم لحقني إلى الغرفة الأخرى وهو يقول

---

(١) الأنفال: ٢٤.

بصوت متقطع: آخر مرة سامحيني، فكانت معاناتي بعد ذلك الموقف تزيد يوما بعد يوم.

وفي إحدى الليالي قمت في السحر، وسألت الله أن يهديني ويصلحني ويوفقني لسبيل أستطيع ضبط نفسي به، وفتحت المصحف لأتخير من آياته للصلاة، وتوفيقًا من الله؛ إذ بي أفتح على قوله عز وجل من سورة البقرة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾(١).

كنت أقرأ من بداية الصفحة؛ وحين وصلت إلى هذه الآية لم أتمالك نفسي، وبدأت أكرر الآية: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ومع التكرار بدأت أفكر: صلابةُ الحجرِ تَلِيْنُ وتُفَجِّرُ أنهارًا، وأنت أين قلبُك؟!!

عدت من جديد للآية وقراءتها، كان الخطاب فيها لليهود، ووجدتني أحاسب نفسي على فظاظتي وشدتي في المعاملة، حتى استيقظت في اليوم التالي وكأني قد ولدت من جديد.

لقد تخرجت بعد ذلك واشتغلتُ بالتدريس، وكانت المرحلة الابتدائية أول عملي في التدريس لمدة أربع سنوات، وها أنا اليومَ أعملُ في التوجيه، وأستقبل المكالمات من المعلمات لأعلمهن الطريقة الصحيحة في التعامل مع هذه المرحلة، وأتذكر دائمًا حِلْمَ الله على العاصي والكافر، فكيف بالمؤمن الموحد!

وأخيرًا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾(٢).



---

(١) البقرة: ٧٤.

(٢) الأعراف: ٤٣.



﴿ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ ﴾

كلما تذكرت هذه الآية: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ ﴾[(١)]؛ أَحْرِصُ ألا يكون بيني وبين أحدٍ خلافٌ، وأحاولُ إن كان هناك خلاف أن أمحوه تطبيقًا لهذه الآية.

آياتُ التحدّي!

في ظل الانفتاح وكثرة الفتن وتجاوزات البعض؛ وحين أرى منكرًا؛ وأَضْعُفُ عن التوجيه والإنكار على فاعله؛ أتذكر (آيات التحدي) فَأَقْوَى ويشتدُّ عزمي، إنها تلك الآيات التي يحكي الله تعالى فيهنَّ التحدِّي الذي يخوضه إبليس وأعوانه ضدَّ المؤمنين:

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾[(٢)].

النيّةَ النيّةَ!!

في كل جمعة أقرأ سورة الكهف، لكن في جمعة من الجُمع، مررتُ على آخر صفحة منها، وتحديدًا على قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ

---

(١) الأنفال: ١.

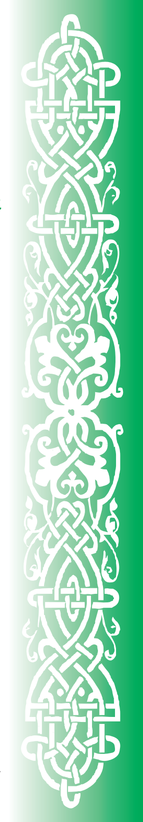
(٢) الحجر: ٣٦-٤٢.

ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾[1]؛ فوقفتُ متأملة: يا الله!!! أيُمكن أن يعمل الإنسان أعمالا قد تكون سببا في خسارتــه؛ وهو يظن أنه يحسن العمل؟!! وأخذت بعدها أتعاهد نيتي، سائلةً الله ربي أن يجعل كل أعمالي خالصة لوجهه!.

آيةٌ غيّرت حياتي!

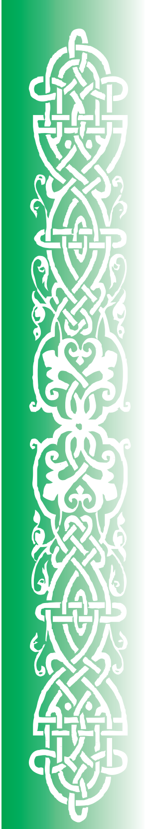
غيرت آيةٌ قرأتُها ذاتَ يومٍ مجرى حياتي كله، وهي قوله تعالى: ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾[2]، لقد كنتُ في معصية الله عز وجل ثلاث سنوات كاملة، حاولت أن أترك المعصية لكني ما استطعت! وجلستُ يوما أبكي بشدة، وأناجي ربي، فسمعتُ الآية أعلاه، فانشرح لها صدري، وتملَّكني الحياء من ربي عز وجل، وسألتُ نفسي حينها بصدق: هل أقبل أن يراني أبي أو أمي أو أيُّ أحد في هذه الدنيا على ما أنا فيه؟ أو حتى أن يسمعوا بما أفعل؟

وكان جوابي الأكيد لنفسي : لا، وألْفُ لا...، فإن كنتُ قد استحييتُ من العباد فكيف برب العباد وهو المطلع على كل شيء! فاستحييت من نظره سبحانه إليَّ وأنا أعصيه، وقررتُ أن أتركَ ما أنا فيه، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرا منه، وبمنة من الله وفضل تركتُ المعصية، وها أنا أنعم بالسعادة بفضل ربي منذ سنوات.



(١) الكهف: ١٠٣-١٠٤.

(٢) النساء: ١٠٨.



﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾

آية في كتاب الله تُبكيني، فعندما أرى منكرًا أضعف عن إنكاره أو أسكتُ؛ أتذكر قول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[١]، تأمَّلتُها أوَّلَ مرةٍ وأنا أبكي: كيف لا أخشى الله وحده وهو مراقب لي، وحاولت فعلا تربية نفسي عند رؤية المنكر أن لا أخشى ولا أخاف إلا الله، فأصبحتُ عندما أنصح من حولي إذا انتابني شعور بالخوف أتذكر تلك الآية: ﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

رضيتُ بما اختار

إذا ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت وتكالبت الهموم، وبدأ الشيطان يُعقِّد أمامي الأمور، ويدّعي ألاَّ وجود للحلول، أتذكر قول ربنا جلَّ شأنه: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾[٢]، فتنقشع عني غيوم الهم، وتشرق في سمائي شمس التفاؤل وإحسان الظن، فإنَّ الخيرَ كل الخير في اختيار الحكيم وتدبير العليم، ولو عُرِض لِيَ الغيبُ ما اخترتُ إلا اختيار ربي.

آية لا تُنسى!

عند التحاقي لأول مرة بدار التحفيظ قرأت في وردي اليومي: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[٣]، أحسست حينها بأنني سأتغير مع القرآن

(١) الأحزاب: ٣٩.

(٢) القصص: ٦٨.

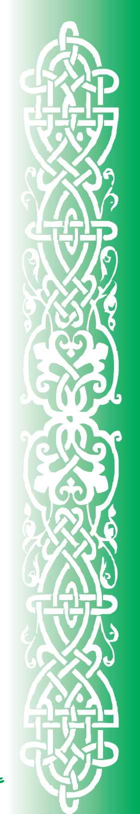
(٣) الإسراء: ٩.

الكريم، لكنني ما كُنت أدري ما هو نوع الهداية ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ؟

ولكن ما مرَّ - والله - شهران على التحاقي بالدار إلا وأصبحتُ أحس بلذة في عباداتي وصيامي، وفي قيام الليل خاصة ومحبةِ الصالحين، ثم بعد سنتين حفظت القرآن الكريم كاملا - ولله الحمد - مع أني كنت منذ بداية التحاقي بالدار لا أحفظ سوى أربعة أجزاء، فأدركت أن هذه هي بركة القرآن الكريم.

◄ الأدب العظيم

سمعتُ أستاذتي يومًا وهي تفسِّر قول الله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾(١)، واستشعرت مع حديثها كيف كان رسول الله ﷺ وهو في رحلته في السماء مع جبريل غاضًّا لبصره عن فضول النظر، وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم منه عليه الصلاة والسلام، حتى مدحه الله بها في الآية، وأصبحت هذه الآية كلما تذكرتُها طريقًا لي بأن أترك فضول النظر أينما كنت وحيثما ذهبت!.



◄ التجارة مع الله

كُنتُ دائما إذا هممتُ بمعصيةٍ أو غِيْبَةٍ لأحد أتذكر قول الله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٢)؛ فَأُحْجِمُ عن ذلك.

وكان سبب محافظتي على العبادات الثلاث: قراءة القرآن الكريم، والصلاة، والإنفاق؛ هي قول الله تعالى في سورة فاطر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ

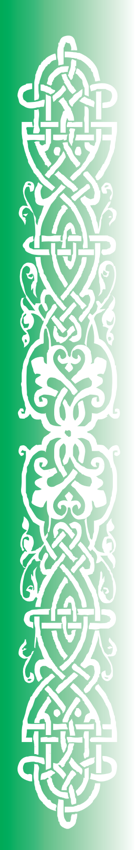
---

(١) النجم: ١٧.

(٢) ق: ١٨.

وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[1]، فما أجمل أن نعمل بالعلم موقنين أننا سنأخذ عليه أجرنا من الله وزيادة؛ لأنه تعالى شكورٌ يقبلُ القليل من الصالحات، ويجزي عليها الكثير من الحسنات.

﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾



كنت طالبة في المراحل الأولى من دراستي الجامعية، وأنا من عائلة محافظة والحمد الله، ولكني كنت متساهلة في الحجاب، بل لم أكن أتحجَّبُ حقيقة.

وحدث أن كنت في صلاة التراويح خلف إمام يرتل القرآن الكريم بصوت جميل وطريقة تحملك على التمعن في الآيات، وكانت قراءته في تلك الليلة من سورة الكهف حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[2]، وفي هذه الآية تحديدًا بدأ صوت الشيخ يلين ويرق ثم بكى، وبكيتُ خلفه وأنا أتخيل الموقف والعرض بين يدي الرحمن وعظمته، وعندما عدت إلى البيت قررت أن ألبس الحجاب وأخبرت أمي بهذا القرار، والحمد لله الذي هداني إلى طاعته ورضاه.

---

(١) فاطر: ٢٩-٣٠.

(٢) الكهف: ٤٧-٤٩.

﴿لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾

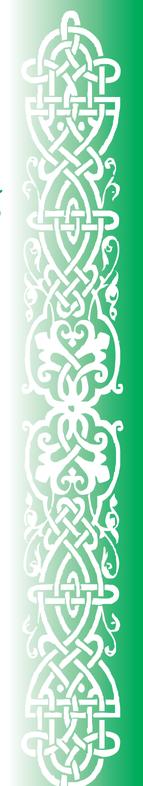
كنت مريضًا مرضًا شديدًا، وكان كل ما يؤرقني هو حياة أولادي من بعدي؛ كيف سيعيشون؟ ومن سيربيهم؟ لو أنهم كانوا أصلب عودًا وأشدَّ قوةً وأسنَّ مما هم عليه؛ لِمتُّ مطمئنًا على حالهم.

وزارني يومًا أحد الصالحين، فبثثت إليه همي، فقرأ علي الآية الكريمة: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾[1].

لقد كنت أحفظ سورة النساء عن ظهر قلب، ولكن الآية كأنها نزلت غضة طرية لتوها، نزلت على روحي بردًا وسلامًا، وعلمت أن الله هو الرزاق الحافظ لي ولهم، وسكنت نفسي لهذا الكلام جدا، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

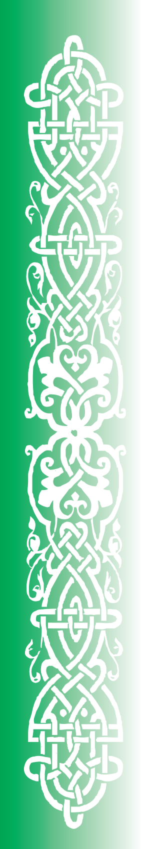
شرف الذاكرين

آيةٌ في كتاب الله أستَحْضِرُهَا كلما دخلتُ مجلسًا من مجالس ذكر الله، وهي قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾[2]، فأستشعِرُ أن مجرد إذن الله لي – ولمن حضر هذا المجلس من فوق سبع سماوات – بذكره؛ هو شرفٌ عظيم لنا، وما أعظم ذكر الله! نسأله سبحانه أن يجعلنا ممن يذكره آناء الليل وأطراف النهار.



(١) النساء: ٩.

(٢) النور: ٣٦.



﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾

كم أثر فيَّ قوله سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾[1]، لقد صارت أمام عيني كلما هممت بمعصية، أتخيل أن الله – سبحانه – يخاطبني بها فأرتدع، فها هو القرآن بين أظهرنا يتلى آناء الليل والنهار، نورًا يمحو ظلمات الهوى، لا يترك لأحد على الله حجة، فلنستمع لآياته، ونتعظ بها قبل أن يقال لنا ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾.

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾

عندما بلغتُ الثامنة عشرة من عمري كُنت فتاة متدينة، وتقدم لخطبتي حينها شاب غير متدين، غير أن الجميع كان يُثني على أخلاقه واستقامة سلوكه، وكُنت مترددة جدا في قبوله؛ بل كنت أقرب إلى الرفض، ومع أن والدي قد سأل عنه، ووجد فيه الصفات المناسبة، إلا أن ذلك لم ينطبق على أمنياتي التي كُنت أنسُجها حول زوج المستقبل، والذي كُنت أريده صالحًا طالبًا للعلم.

وذات يوم؛ جاءت إليَّ أمي تطلب مني الرد النهائي، ونظرت إليَّ وهي تقول بحنان: يا بنيتي؛ لقد استخرتِ الله وأنتِ فتاة طيبة، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾[2]، فلما سمعت الآية وقعت من نفسي موقعًا عجيبًا، وامتلأ قلبي يقينًا بأنَّ الله لن يُخيِّب أملي في أن يكون هذا الشاب هو الأنسب لي، فتوكلتُ على الله ووافقتُ على الزواج منه.

---

(١) المؤمنون: ١٠٥.

(٢) النور: ٢٦.

واليوم؛ وبعد أكثر من ثلاثين سنة قضيتها في زواج ناجح بحمد الله؛ أتذكَّر هذه الآية وأقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [1].

◄ آية تشحذ الهمم!

كلما قسا قلبي وأصابني الفتور لجأت إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [2]، آيةٌ تخشع لها القلوب، وتؤثر في النفوس، كم من سامع لها بكى وخشع! وكم من مذنب تاب وإلى الحق رجع!

◄ غيِّري وإلا تُغيَّري!

مررتُ ذات يوم وأنا أقرأ في كتاب الله بآية لكأنني أقرؤها لأول مرة، وقفتُ هذه المرة أمامها وقوفًا طويلا، انتهى بي إلى بكاءٍ شديد ولَّد في أعماقي إصرارًا كبيرًا وقوةً لا تقف عند حدٍّ في تغيير واقع نفسي وأمتي ولو خطوة واحدة إلى الأمام، لقد أحسستُ بقشعريرة لا تزال تسري في أوصالي كلما ردَّدتها، وكأنها تناديني قائلةً: غيِّـــري وإلا تُغيَّـــري!

إنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [3]، إنه فضلُ الله يؤتيه من يشاء،



---

(١) النساء: ٨٧.

(٢) الحديد: ١٦.

(٣) المائدة: ٥٤.



وإني لأسأل الله أن أكون ممن يُؤتاه بمنته ورحمته، وأن نكون ممن يستعملهم سبحانه في طاعته وخدمة دينه، لا ممن يستبدلهم... آمين.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾

في يوم شتاء بارد، استيقظ زوجي كالعادة لصلاة الصبح، فأيقظني وذهب لإيقاظ ابني، واسترخيتُ قليلا من شدة البرد وأنا بين النوم واليقظة، وأقول في نفسي: أغفو قليلا لحين عودتهم ثم أقوم للصلاة، أصغيتُ للإمام وهو يتلو فإذا هي الآية: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾[1]؛ فصحوت مسرعة، ونهضت وأنا أتخيل الساق تلتف بالساق، وأقول في نفسي: ماذا تنفع هذه الغفوة؟ لقد هزت الآية مشاعري، وأحسست أنها تخاطبني مباشرةً، وفعلا غيرت هذه الآية العظيمة مسار حياتي.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾

كم يضيق صدري، وينقبض قلبي، ويتكدر خاطري؛ مما أراني عليه من لهث وراء هذه الدنيا وزينتها! ومما أرى فيها من الإسراف والتَّرَفِ والمباهاة والمنكرات وكشف العورات! وأخشى والله من سوء العاقبة، ويكفي من ذلك الغفلة وعدم المصابرة مع من أَمَرَنَا ربُنَا بحبسِ النفسِ معهم في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2].

---

(١) القيامة: ٢٩.

(٢) الكهف: ٢٨.

آيةٌ للتجار فقط!

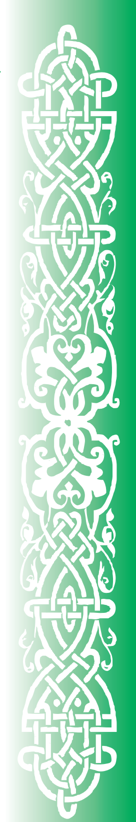
كنتُ أطلب من زوجي دائمًا أن يكون هو المبادر لإنجاح حياتنا، وإصلاح أمورنا، وكنت أغضب وأرى ذلك واجبًا عليه وحده، بينما أتكاسل أنا في ذلك، وأمُنُّ عليه في نفسي إذا قمت بشيء من ذلك، إلى أن قرأت تفسير قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾(1)، فأدركتُ ضرورة أن أطالب نفسي بأكثر مما أطالب به زوجي من المبادرة إلى الخيرات والإصلاح، وأدركتُ أهمية أن نجعل هذه الآية نصب أعيننا في جميع تعاملاتنا، فقد كنت أظن – لفرط جهلي - أن هذه الآية للتجار فقط!.

معاناة وآية

كنتُ ولا زلتُ أعاني نوعًا من المشقة في إيقاظ أبنائي على اختلاف أعمارهم لأداء صلاة الفجر في المسجد، ويتسرَّب إليَّ الضجر والملل في أحايين كثيرة، فكُنت لا أنفكُّ أقرأ بصوت مسموع قولَه تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(2)، فأشعر بقوة تساندني، وأستشعر أنني الآن مستجيبة لأمر الله تعالى الذي طلبه مني في الآية، فأجالد نفسي على الصبر حتى أنال أجر الصابرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(3).

المحك الحقيقي

استوقفتني آيةٌ عندما كنت أحفظ سورة الأنفال، إنها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا



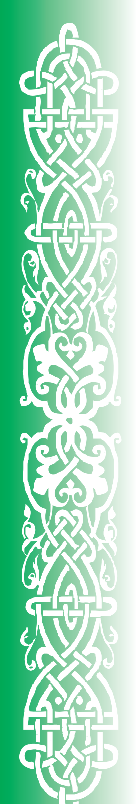
(1) المطففين: ١.

(2) طه: ١٣٢.

(3) الزمر: ١٠.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[1]، وبحثتُ عن تفسيرها وتأثرت به جدًا، فأصبحت بعد ذلك المقياس والمحك لكل موقف يمر بي: هل أنا في المسار الصحيح، أم حِدْتُ عن الطريق؟ فتستحثني للإسراع في الاختيار.

في الآية دعوةٌ بنداء الإيمان، وأمرٌ بالمسارعة إلى طاعة كل أمرٍ من الله ورسوله؛ خشيةَ أن يُحال بينكَ وبين قلبكِ إذا توانيتَ أو ترددتَ، ثم تتمنى بعد ذلك الوصول إليه فلا تستطيع!.



سورة يوسف

بدأت رحلتي مع القرآن الكريم ذات يوم حينما كنت مكروبة بأمر دنيوي وضاقت بي الدنيا، كان مصحفي الصغير يعلو الطاولة أمامي، ورغم ذلك لم أمنح نفسي من قبلُ وقتًا لأتلو آياته ليخفف لوعتي ويُنير وَحدتي، أمسكته يومها ونفسي الأمَّارة بالسوء تنازعني وتقول لي: لا وقت ولا حلَّ لمشكلتك، ولم أعد أطيق الاستماع لها!

وشرعت في تلاوة (سورة يوسف)، وكُنت قد اعتدتُ في السابق تلاوتها حتى حفظت معظم آياتها فأحببتها، وأخذتُ أتلو وأنشج لما آل إليه حالي، وأفكر في حال يوسف عليه السلام، وبدأتُ أقارن بين حاله وحالي، بين مصيبته ومصيبتي، فطاشت كفتي أمام كفته، إذ إن مصيبتي لم تكن شيئًا في ميزان مصيبته، طفل صغير يُلقيه إخوته ويرحلون عنه، وأبٌ يفقد أحبَّ أبنائه إليه، مضيتُ أقرأ أحداث القصة

---

(١) الأنفال: ٢٤.

حتى غلبني النوم والمصحف في يدي، وحينما استيقظتُ أعلنتُ ميلادًا جديدا لقلبي الذي علاه الصدأ، واستلمتُ مصحفي ورُحتُ أقرأ بلذة لا تُعادلها لذة.

◄ أزهرت حياتي بالقرآن

اكتشفتُ أن العلاج الناجح لكل داءٍ هو القرآن الكريم، دائي كان ذنوبي، وضعفَ سيطرتي على شهوات نفسي، حتى أوصلني ذلك إلى حد كره ذاتي، ولم يكن عمري قد تجاوز السابعة عشرة بعد!

وقُبَيْلَ رمضانَ بأيامٍ؛ سمعتُ كلماتٍ ناصحةٍ تَحُثُّ على استثمار فرصةِ رمضانَ، وجعلِهِ نقطة انطلاق لحياة جديدة من خلال تدبر القرآن الكريم، فامتثلتُ لهذه الموعظة وقرأته بخشوعٍ وتدبرٍ، فأحسست به يَغْسِلُ كُلَّ ركامِ الآثامِ بداخلي، وبدأت أُدَوِّنُ كل آيةٍ أتأثر بها في دفترٍ خاصٍّ وأبحث عن تفسيرها، أقرؤه بعد ذلك فيزيد إيماني وأهنأ بالسكينة، وأزهرت حياتي بالقرآن، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

◄ ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾

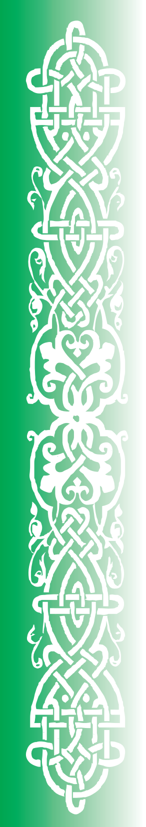


قبل اثني عشر عامًا كنتُ أُدَرِّسُ المرحلة الثانوية، فأحضرتُ للطلاب شريطا بتلاوة قارئ، وكان من عادتي يومئذ أن أستمع معهم لقارئ متقن في آخر خمس دقائق من حصة القرآن لتعريفهم بالقراء المتقنين، وكان نصيب ذلك الدرس تلاوة لشيخ المقارئ الليبية الشيخ (الدوكالي عالم) صاحب الصوت الشجي، والنبرة المؤثرة.

وبعد انتهاء الدرس، جاءني طالب لم أعهد منه حرصًا ولا صلاحًا، بل كان من أرباب المشكلات السلوكية في المدرسة، أتاني في غرفة المعلمين بعد الدرس،

وبعد أن أبدى إعجابه بالقارئ قال لي: الآيات بصوته حلوة، وتدخل القلب، وأحسست بها جدًا!

دفعني الفضول لمعرفة المزيد، وسألته عن أكثر شيء أثَّر فيه، فقال لي: سمعتُ منه آية خوفتني من الله، فقلتُ: ماهي؟ فطلب مني المصحف لأنه لا يحفظها، فأعطيته المصحف مفتوحًا على نفس المقطع، فأشار إلى الآية وإذا هي قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾[1]، ورأيته قد تأثّر، وهو يقول لي: ادعُ لي يا أستاذ أن يستر الله عليَّ!، و والله إنّ حديثه منذ اثني عشر عامًا لا يزال في أذني كأنما قد سمعتُه لتوِّي، ولا زلتُ أتأثر بالآية كلما سمعتها أو قرأتها.



﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾

من الآيات التي تأثرت بها؛ تلك الآيات التي يتودَّد الله جل وعلا فيها إلى عباده وهو غنيٌّ عنهم، يقول الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

ما أحقرنا حين نتجرأ على الله بالمعاصي! وكلما وسوس لي الشيطان بمعصية

(١) الزمر: ٤٧.

(٢) الأنفال: ٢٤-٢٦.

تذكرتُ هذه الآيات، واستحييتُ من الله، فنحن منذ لحظة استيقاظنا إلى نومنا نتقلب في نعم الله الذي يتودد إلينا بها، وهو الغني عنا سبحانه!

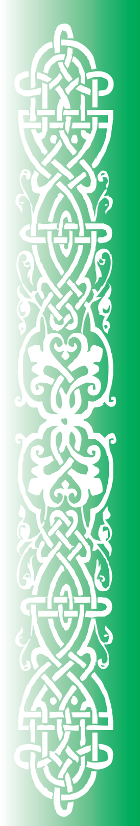
﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

غالبا ما أستشعرُ في حياتي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾(١)، فتطبَّعتُ بها وصار معناها جزءًا مني، حتى أصبح البعض لا يتهيَّب من استشارتي في بعض الأمور الدقيقة في حياته لعلمِهِ اليقين بأني لن أتطلع لمعرفة ما حجبه عني بإرادته مما لا يفيد في تقديم المشورة، فوجدت في ذلك تربيةً لنفسي على قوة الإرادة، وراحة لها عن أن تنشغل بما لا يعنيها!.

ميزان الصداقة

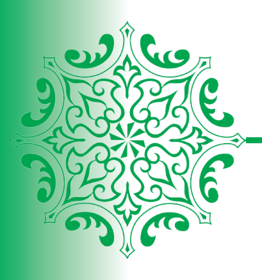
كانت الصداقات من حولي كثيرة، وكنت حائرة في اختياراتي بينها، حتى قرأت بعين قلبي قولَه تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(٢)، وحينما عِشْتُ مع الآية بمشاعري وأحاسيسي؛ أذعنت لها جوارحي، وأيقنتُ بقرب الله مني ولطفه بي، وكأنما نزلت الآية لي وحدي دون سواي، وكأَنْ قد عَلِمَ سبحانه حاجتي دون أن أُبدي شكواي، وها أنا في ظلها أجد السعادة الحقيقية مع الأخلاء الأوفياء الأتقياء الذين ازددت معهم قربًا من الله وإقبالا عليه، ووجدت منهم محبة صادقة لا يحكمها إلا الإيمان والحب في الله.





(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) الزخرف: ٦٧.



الخاتمة

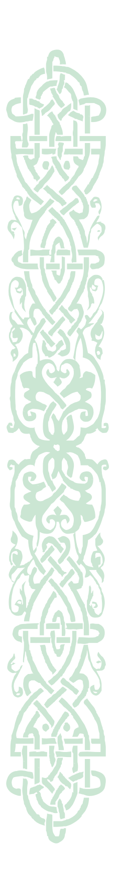
وبعدُ، فقد كانت رحلةً ممتعة في رحابِ قِصَصِ الذينَ عاشوا معَ القرآنِ بقلوبهم، فخشعتْ قلوبهم، ودمعَتْ عيونهم، أو عاشوا مع القرآن واقعًا في حياتهم، فائتمروا بأمره، وانتهوا بنهيه، وعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، فحسُنت أخلاقهم، وطابت نفوسهم بما لهم عند الله!

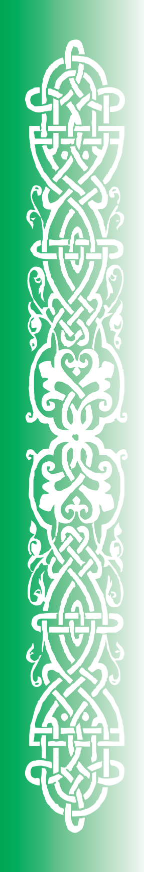
إن القِصص في القرآن الكريم كثيرةٌ ومتنوعةٌ، وذلك لما للقصة من أثرٍ في تسهيل الفهم، والتشجيع على العمل، ولما فيها من العظة والعبرة، والتاريخ والأحداث تتكرر وتعيد نفسها، فطوبى لمن كانت له في غيرِهِ عِبْرَةٌ، ولم يكُنْ عبرة لغيره!.

إنها دعوة لندخل فيما دخلوا فيه، لنسعد كما سعدوا، وننقلب إلى الله بأعمال صالحة تُدخلنا الجنة برحمة الله، وما أقبح أن تُبحر عيوننا في قصص الصالحين؛ ثم لا نسعى إلى التشبه بهم، والاقتداء بسيرتهم!.

نسأل الله أن نكون قد وُفِّقنا في جمع هذه القِصص، وأن تكون نافعة لأهل الإيمان، زيادةً في إيمانهم، ورفعةً في درجاتهم، واللهَ نسأل القبول.

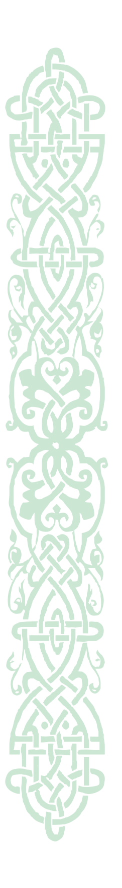


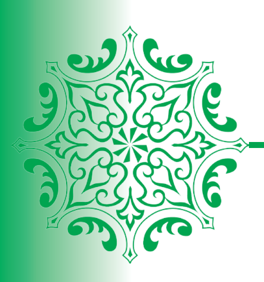




ملحق

قالوا عن القرآن الكريم





ملحق

لم يمتدَّ أثر كتابٍ سماويٍّ إلى هذا المدى الذي نشهده ونحياه في أثر القرآن العظيم، هذا الأثر الذي لم يقتصر على حياة من سبق، ولا على حياة المعاصرين اليوم، وإنما امتدَّ وتسامق لينشرَ العَبَقَ في حياة أناسٍ لم يكن لهم بلغته دراية، ولا في آياته تمحيصٌ وقراءة، ومع ذلك؛ كان فيه البلاغ للمخاطبين به، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (١).

لقد تأثَّر أفراد من الغرب والشرق الكافر بهذا الكتاب العظيم، ليتجاوزوا بذلك حاجز اللغة والتاريخ والمكان، وليقولوها مُدَوِّيَةً: هذا القرآن العظيم هو رسالةُ السماء، مصداقًا لقول الحق تبارك وتعالى في كتابه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

سنقرأ فيما يأتي بعضًا من أقوال القوم الذين بُهروا فأسلموا، ومنهم من توقف

---

(١) الأنعام: ١٩.

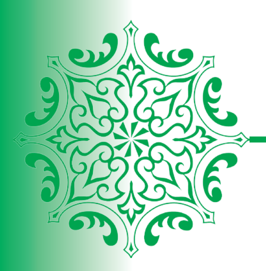
(٢) البقرة: ١٤٦.

متشبثًا بدينه قد ألجمه القرآن ولكن لم يُسلم، ومنهم من عرف الحق وجحده، ومنهم من أبى إلا الاعتراف وإن لم يُسلم، هيَ لمحاتٌ من تأثير القرآن في حياتهم بأقلامهم وبألسنتهم، تشهد بأنه الكتاب الحق من الله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾[1]، ولتكون رسالة لأهل القرآن عَلَّهُمْ أن يتدبروه ويعملوا به!



(١) الشعراء: ١٩٢-١٩٣.





قالوا عن القرآن الكريم



١. «لقد قمتُ بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة، باحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن الكريم مع معطيات العلم الحديث؛ فأدركت أنه لا يحتوي على أيَّةِ مَقولةٍ قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث...»[١].

٢. (١) «يرتبط هذا النبي ﷺ بإعجازٍ خالدٍ بما يخبرنا به المسيح عليه السلام في قوله عنه: «ويخبركم بأمور آتية»، هذا الإعجاز هو القرآن الكريم معجزة الرَّسول الباقية ما بقي الزَّمان، فهو يسبق العلم الحديث في كلِّ مناحيه: من طب، وفلك، وجغرافيا، وجيولوجيا، وقانون، واجتماع، وتاريخ، وفي أيامنا هذه؛ استطاع العلم أن يرى ما سبق إليه القرآن بالبيان والتعريف...».

---

(١) العالم الفرنسي موريس بوكاي ،طبيب فرنسي ، رئيس قسم الجراحة في جامعة باريس ، اعتنق الإسلام عام١٩٨٢م.

(٢) «للمسلم أن يعتزَّ بقرآنه، فهو كالماء؛ فيه حياة لكل من نهل منه»[١].

٣. «... إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضًا تحفة أدبية رائعة؛ تسمو على جميع ما أقرَّته الإنسانية وبجَّلته من التحف، إن الخليفة المقبلَ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه المُعَارِضَ الفظَّ في البداية للدين الجديد؛ قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطعٍ من القرآن، وسيأتي الحديث فيما بعد عن مقدار الافتتان بالنص القرآني بعد أن رتَّله المؤمنون»[٢].

٤.«.. عندما أكملت القرآن الكريم غمرني شعور بأن هذا هو الحق الذي



(١) إبراهيم خليل أحمد ، قس مبشر من مواليد الاسكندرية عام ١٩١٩، يحمل شهادات عالية في علم اللاهوت من كلية اللاهوت المصرية، ومن جامعة برنستون الأمريكية، عمل أستاذا بكلية اللاهوت بأسيوط، كما أُرسل عام ١٩٥٤ إلى أسوان سكرتيرًا عامًا للإرسالية الألمانية السويسرية، وكانت مهمته الحقيقية التنصير والعمل ضد الإسلام، لكن تعمقه في دراسة الإسلام قاده إلى الإيمان بهذا الدين، وأشهر إسلامه رسميًا عام ١٩٥٩، كتب العديد من المؤلفات، أبرزها ولاريب: (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن)، (المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي)، و(تاريخ بني إسرائيل).

(٢) بلاشير،ولد بالقرب من باريس، وتلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء، وتخرج بالعربية في كلية الآداب بالجزائر (١٩٢٢)، وعين أستاذا لها في معهد مولاي يوسف بالرباط، ثم انتدب مديرًا لمعهد الدراسات المغربية العليا بالرباط (١٩٢٤ - ١٩٣٥)، ثم استدعته مدرسة اللغات الشرقية بباريس أستاذًا لكرسيِّ الأدب العربي (١٩٣٥ - ١٩٥١)، ونال الدكتوراه (١٩٣٦)، وعين أستاذا محاضراً في السوربون (١٩٣٨)، ومشرفاً على مجلة (المعرفة) التي ظهرت في باريس باللغتين العربية والفرنسية، ومن آثاره: دراسات عديدة عن تاريخ الأدب العربي في أشهر المجلات الاستشراقية، وكتاب (تاريخ الأدب العربي - باريس ١٩٥٢)، وترجمة جديدة للقرآن الكريم في ثلاثة أجزاء (باريس ١٩٤٧ - ١٩٥٢)، وغيرها.

يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها، فهو يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية، أما القرآن الكريم فيتحدث عنها في نسق رائع وأسلوب قاطع لا يدع مجالا للشك بأن هذه هي الحقيقة وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة»[(١)].

٥. «... ابتعت نسخة من ترجمة سافاري (Sa:ary) الفرنسية لمعاني القرآن الكريم وهي أغلى ما أملك، فقد لقيت في مطالعتها أعظم متعة، وابتهجت بها كثيرًا حتى غدوتُ وكأن شعاع الحقيقة الخالد قد أشرق عليَّ بنوره المبارك»[(٢)].

٦. «إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ولا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يُقلَّد، وهذا هو أساس إعجاز القرآن، فمن بين جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى»[(٣)].



---

(١) ديبورا بوتر... ولدت عام ١٩٥٤، بمدينة ترافيرز، في ولاية متشيغان الأمريكية، وتخرجت من فرع الصحافة بجامعة متشيغان، اعتنقت الإسلام عام ١٩٨٠ بعد زواجها من أحد الدعاة الإسلاميين العاملين في أمريكا، بعد اقتناع عميق بأنه ليس ثمة من دين غير الإسلام يمكن أن يستجيب لمطالب الإنسان ذكرًا كان أم أنثى.

(٢) وليم بيرشل بشير بيكارد ، إنكليزي، تخرج من كانتر بيري، مؤلف وكاتب مشهور، ومن بين مؤلفاته الأدبية بالإنكليزية (مغامرات القاسم) و(عالم جديد)، شارك في الحرب العالمية الأولى وأسر. عمل فترة من الوقت في أوغندا. أعلن إسلامه عام ١٩٢٢م.

(٣) د. فيليب حتَّى ، ولد عام ١٨٨٦م ، لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت (١٩٠٨م)، ونال الدكتوراه من جامعة كولومبيا (١٩١٥م)، وعين معيدًا في قسمها الشرقي (١٩١٥-١٩١٩)، وأستاذًا للتاريخ العربي في الجامعة الأمريكية ببيروت (١٩١٩-١٩٢٥)، وأستاذًا مساعدًا للآداب السامية في جامعة برنستون (١٩٢٦-١٩٢٩م)، وأستاذًا، ثم أستاذ كرسي، ثم رئيسًا لقسم اللغات والآداب الشرقية (١٩٢٩-١٩٥٤م)، وحين أحيل على التقاعد؛ انتُخب عضوًا في جمعيات ومجامع عديدة.

٧. «... تناولتُ نسخةً مِنْ ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية؛ لأنني عرفت أن هذا هو الكتاب المقدس عند المسلمين، وشرعت في قراءته وتدبُّر معانيه، فاستقطب جُلَّ اهتمامي، وكم كانت دهشتي عظيمة حين وجدت الإجابة المقنعة عن سؤالي المحيّر: (الهدف من الخلق) في الصفحات الأولى من القرآن الكريم... لقد قرأت الآيات (٣٠-٣٩) من سورة البقرة... وهي آيات توضح الحقيقة بجلاء لكل دارس منصف، إنها تخبرنا عن قصة الخلق بكل وضوح وجلاء وبطريقة مقنعة..»[(١)].

٨. «سيكون القرآن حافزًا للجهاد يردده المؤمنون كما يردد غيرهم أناشيد الحرب، محرضًا على القتال جامعًا لشؤونه، محركًا لفاتري الهمم، فاضحًا للمخلَّفين مُخْزِيًا للمنافقين، واعدًا الشهداء جنَّات عدن»[(٢)].

٩. «أتى محمد ﷺ بالقرآن دليلاً على صدق رسالته، وهو لا يزال إلى يومنا هذا سرًّا من الأسرار التي تعذر فك طلاسمها، ولن يَسْبِرَ غَوْرَ هذا السر المكنون إلا من يصدق بأنه منزل من الله...»[(٣)].



---

(١) عامر علي داود، ينحدر من أسرة هندية برهمية، تنصرت على أيدي المنصرين الذين قاموا مع طلائع الاستعمار، كان كثير القراءة للكتب الدينية، ولما أتيح له أن يطلع على القرآن الكريم كان الجواب هو انتماؤه للإسلام، وإسلامه.

(٢) إميل درمنغم، مستشرق فرنسي، عمل مديرًا لمكتبة الجزائر، من آثاره: (حياة محمد) (باريس ١٩٢٩) وهو من أدق ما صنَّفه مستشرق عن النبي n، و(محمد والسنة الإسلامية) (باريس ١٩٥٥م)، ونشر عددًا من الأبحاث في المجلات الشهيرة مثل: (المجلة الأفريقية)، و(حوليات معهد الدراسات الشرقية)، و(نشرة الدراسات العربية).

(٣) الكونت هنري دي كاستري، مقدم في الجيش الفرنسي، قضى في الشمال الأفريقي ردحًا من الزمن. من آثاره: (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب) (١٩٥٠)، (الأشراف السعديون) (١٩٢١)، (رحلة هولندي إلى المغرب) (١٩٢٦)، وغيرها.

١٠. (١) «إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا محمدًا ﷺ كانت في الواقع معجزات وقتية، وكانت بالتالي معرضةً للنسيان السريع، بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية (المعجزة الخالدة)، وذلك أن تأثيرها دائمٌ ومفعولها مستمر، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان ومكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد التلاوة في كتاب الله، وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي أحرزه الإسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوروبيون لأنهم يجهلون القرآن، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلا عن أن تكون دقيقة»[(١)].

١١. «.. لقد ظل [القرآن] أربعة عشر قرنًا من الزمان محفوظًا في ذاكرة [المسلمين] يستثير خيالهم، ويشكل أخلاقهم، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال، والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد، وأقلها غموضًا، وأبعَدَهَا عن التقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحررًا من الوثنية والكهنوتية، وقد كان له أكبر الفضل في رفع المستوى الأخلاقي والثقافي للمسلمين، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية، وحرَّضهم على اتباع القواعد الصحية، وحرَّر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام، ومن الظلم والقسوة، وحسَّن أحوال الأرِقَّاء، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين

---

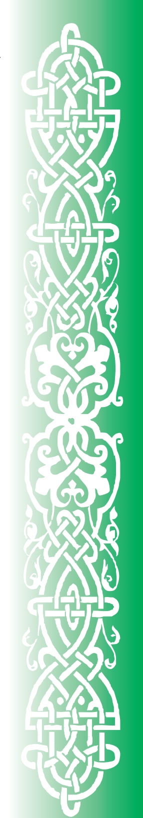
(١) ايتين دينيه ، مفكر فرنسي، تعلم في فرنسا، وقصد الجزائر، فكان يقضي في بلدة بوسعادة نصف السنة من كل عام، وأشهر إسلامه وتسمى بناصر الدين (١٩٢٧)، وحج إلى بيت الله الحرام (١٩٢٨)، ومن آثاره: صنف بمعاونة سليمان بن إبراهيم (محمد في السيرة النبوية)، وله بالفرنسية (حياة العرب)، و(حياة الصحراء)، و(أشعة خاصة بنور الإسلام)، و(الشرق في نظر الغرب)، و(الحج إلى بيت الله الحرام).

درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض...»[1].

١٢. (١) «... لما كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد [أُنْزِلَ] لِيُقرَأَ ويُتلى بصوت عال، ولا تستطيع أَيَّةُ ترجمةٍ أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبَعَة بالحساسية الشرقية، إذ يجب أن تقرأه بلغته التي كُتب بها لتتمكن من تذوق جماله وقوته وسمو صياغته، ويخلق نثره الموسيقي المسجوع سحرًا مؤثرًا في النفس، حيث تزخر الأفكار قوة، وتتوهج الصور نضارة، فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأن محمدًا ﷺ كان ملهمًا بجلال الله وعظمته».

(٢) «إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات، إنه يسعى للأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة... وفي مادة التشريع وَضَعَ قواعدَ لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظَّمَ العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرِقَّاء والحيوانات والصحة والملبس، إلخ...».

(٣) «.. حقًا، لقد ظلت شريعة القرآن راسخة على أنها المبدأ الأساسي لحياة المسلم، ولم يتعرض ما جاء في القرآن من أخلاق ونظام لأية تغييرات أو



---

(١) ول ديورانت ، مؤلف أمريكي معاصر، يعد كتابه (قصة الحضارة) ذو الثلاثين مجلدًا، واحدًا من أشهر الكتب التي تؤرخ للحضارة البشرية عبر مساراتها المعقدة المتشابكة، عكف على تأليفه السنين الطوال، وأصدر جزأه الأول عام ١٩٣٥، ثم تلته بقية الأجزاء، ومن كتبه المعروفة كذلك (قصة الفلسفة).

تبديلات»[١].

١٣. «إن القرآن الكريم مع أنه أُنزل على رجلٍ عربيٍّ أُمِّيٍّ نشأ في أمَّةٍ أمية، فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعلمها الإنسان إلا في أرقى الجامعات، كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة»[٢].

١٤. «في تلك الفترة من حياتي بدا لي وكأنني فعلت كل شيء، وحققت لنفسي النجاح والشهرة والمال والنساء... كل شيء، ولكن كنت مثل القرد أقفز من شجرة إلى أخرى ولم أكن قانعًا أبدًا، ولكن كانت قراءة القرآن بمثابة توكيد لكل شيء بداخلي كنتُ أراه حقًّا، وكان الوضع مثل مواجهة بشخصيتي الحقيقية»[٣].

١٥. (١) «... لقد كان محمدٌ ﷺ أُمِّيًا لا يقرأ ولا يكتب، فإذا بهذا الأمِّيِّ يُهدي إلى الإنسانية أبلغَ أثر مكتوبٍ حلمت به الإنسانية منذ كانت، ذاك هو القرآن الكريم، الذي أنزله الله على رسوله هدى للمتقين...».

(٢) «... الإسلام ليس بحاجة إلى قلمنا، مهما بلغ قلمنا من البلاغة، ولكن



---

(١) جاك ريسلر، باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس.

(٢) بوجينا غيانة ستشيجفسكا، باحثة بولونية معاصرة، درست الإسلام في الأزهر على يد أساتذة ومشرفين أخصائيين زهاء خمس سنوات (١٩٦١-١٩٦٥)، تمكنت خلالها من تعلم اللغة العربية كذلك، وكانت قد أنهت دراساتها العليا في كلية الحقوق، وفي معهد اللغات الشرقية في بولونيا.

(٣) كات ستيفنز، المغني البريطاني - نمساوي الأصل - المشهور، بيع من أسطواناته ما يقدر بالمليون في الستينات وأوائل السبعينات، اعتنق الإسلام عام ١٩٧٦ بعد أن تعرف على القرآن الكريم بواسطة شقيقه، يقضي الآن معظم وقته في المسجد ويلعب دورًا فعالاً في شؤون الجالية الإسلامية في لندن.

قلمنا بحاجة إلى الإسلام، وإلى ما ينطوي عليه من ثروة روحية وأخلاقية، إلى قرآنه الرائع الذي بوسعنا أن نتعلم منه الكثير»[١].

١٦. (١) «يرجع مَيلي إلى الإسلام... حينما شرعت في مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى... فولعت به ولعًا شديدًا... وكنت أطرب لتلاوة آياته».

(٢) «إن معجزة القرآن الكريم أكثر بروزًا في عصرنا الحالي – عصر النور والعلم – مما كانت عليه في الأزمنة التي سادها الجهل والخمول...»[٢].

١٧. «... إن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يحفظه عن ظهر قلب ألوف مؤلفة من البشر في مختلف بقاع الأرض، بينما نجد أن الكتب المقدسة الأخرى محفوظة بالخط المطبوع فقط، ومن هنا لو حدث لسبب أو لآخر أن اختفت الكتب المطبوعة؛ يظل القرآن هو كتاب الله الوحيد المحفوظ في الصدور، وهكذا يحق لنا أن نتباهى بأنه ظل في مأمن من التحريف لم ينقص منه حرف واحد، ولم يزد فيه حرف واحد منذ أن نزل به الوحي على رسول الله ﷺ، فليست هناك أية تناقضات ولا أخطاء من أي نوع في القرآن الكريم، هذا في الوقت الذي تعاني فيه



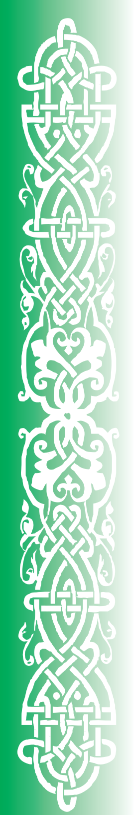
(١) نصري سلهب ، مسيحي من لبنان ، تميز بنظرته الموضوعية وتحريه للحقيقة المجردة تجاه الإسلام..

(٢) د. أحمد نسيم سوسه ، باحث مهندس من العراق، وعضو في المجمع العلمي العراقي، وواحد من أبرز المختصين بتاريخ الري في العراق، كان يهوديًا فاعتنق الإسلام متأثرًا بالقرآن الكريم، توفي قبل سنوات قلائل، ترك الكثير من الدراسات في مختلف المجالات وخاصة في تاريخ الريّ، وفنَّد في عدد منها ادعاءات الصهيونية العالمية من الناحية التاريخية، ومن مؤلفاته الشهيرة: (مفصل العرب واليهود في التاريخ)، و(في طريقي إلى الإسلام) الذي تحدث فيه عن سيرة حياته.

الكتب السماوية الأخرى في نسخها الحالية من الكثير من التغيير والتبديل، وهذا سبب آخر جعلني أؤمن بالإسلام»[(١)].

١٨. «إن هذا الكتاب، الذي يتلى كل يوم في طول العالم الإسلامي وعرضه، لا يوقع في نفس المؤمن أي حسٍّ بالملل، بل على العكس؛ عن طريق التلاوة المكررة يحبب نفسه إلى المؤمنين أكثر فأكثر؛ يومًا بعد يوم. إنه يوقع في نفس من يتلوه أو يصغي إليه حسًّا عميقًا من المهابة والخشية، وفي إمكان المرء أن يستظهره في غير عسر، حتى إننا لنجد اليوم - على الرغم من انحسار موجة الإيمان - آلافًا من القادرين على ترديده عن ظهر قلب»[(٢)].

١٩. «.. لقد عرفت الآن بصورة لا تقبل الجدل؛ أن الكتاب الذي كنت ممسكًا به في يدي كان كتابًا موحىً به من الله، فبالرغم من أنه وُضع بين يدي الإنسان منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا؛ فإنه توقع بوضوح شيئًا لم يكن بالإمكان أن يصبح حقيقة إلا في هذا العصر المعقد الآلي... لقد عرفت أن هذا القرآن لم يكن مجرد حكمة إنسانية من إنسان عاش في الماضي البعيد في جزيرة العرب النائية، فمهما كان هذا الإنسان على مثل هذا القدر من الحكمة فإنه لم يكن يستطيع وحده أن يتنبأ بالعذاب



---

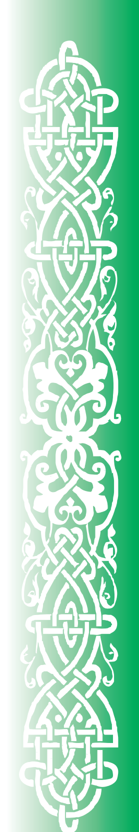
(١) بشير أحمد شاد ، ولد عام ١٩٢٨؛ لأسرة نصرانية هندية بقرية ديان جالو الهندية، كان أبوه منصرا نصرانيًا ولذا حرص على تنشئة ابنه على ذات الطريق، فأكمل دراسته وبدأ يعمل منصرا في لاهور، لكنه مثل كثيرين غيره؛ ما لبث أن فقد قناعاته – كلية – بالنصرانية، وانتهى به الأمر بعد عشرين سنة من البحث والمعاناة إلى إعلان إسلامه.

(٢) لورا فيشيا فاغليري ، باحثة إيطالية معاصرة، انصرفت إلى التاريخ الإسلامي قديمًا وحديثًا، وإلى فقه العربية وآدابها.

الذي يتميز به هذا القرن العشرون، لقد كان يهمس لي صوت من القرآن أعظم من صوت محمد ﷺ»[١].

٢٠. «إن القرآن – كلامَ الله – يشد فؤاد المسلم، وتزداد روعته حين يُتلى عليه بصوت مسموع، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه إلى الاعتراف ببلاغة القرآن، واعتمادًا على أثره البليغ في قلوب قُرّائه وسامعيه، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع»[٢].

٢١. «إن أثر القرآن في كل هذا التقدم [الحضاري الإسلامي] لا ينكر، فالقرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم، ومكَّنهم من إنشاء إمبراطورية فاقت إمبراطورية الإسكندر الكبير، والإمبراطورية الرومانية: سَعةً وقوةً وعمرانًا وحضارةً...»[٣].



---

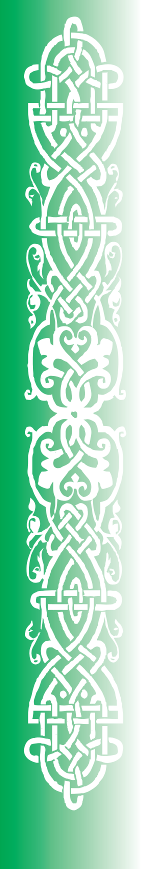
(١) ليوبولد فايس ، مفكر، وصحفي نمساوي، أشهر إسلامه، وتسمى بمحمد أسد، وحكى في كتابه القيم (الطريق إلى مكة) تفاصيل رحلته إلى الإسلام، ومن آثاره: ترجم صحيح البخاري بتعليق وفهرس، وألف (أصول الفقه الإسلامي)، و(الطريق إلى مكة)، و(منهاج الإسلام في الحكم)، و(الإسلام على مفترق الطرق).

(٢) الدكتور سدني فيشر ، أستاذ التاريخ في جامعة أوهايو الأمريكية، وصاحب الدراسات المتعددة في شؤون البلاد الشرقية التي يدين الأكثرون من أبنائها بالإسلام. مؤلف كتاب (الشرق الأوسط في العصر الإسلامي) والذي يناقش فيه العوامل الفعالة التي يرجع إليها تطور الشعوب والحوادث في هذه البلاد وأولها الإسلام.

(٣) الليدي إيفلين كوبولد ، نبيلة إنكليزية، اعتنقت الإسلام وزارت الحجاز، وحجت إلى بيت الله، وكتبت مذكراتها عن رحلتها تلك في كتاب لها بعنوان: (الحج إلى مكة) (لندن ١٩٣٤) والذي ترجم إلى العربية بعنوان (البحث عن الله).

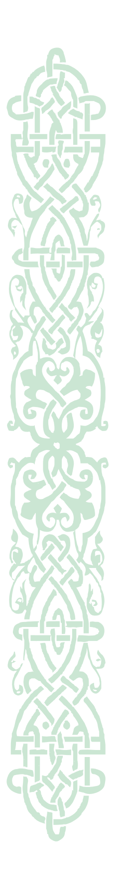
٢٢. «.. لن أستطيع مهما حاولت؛ أن أصف الأثر الذي تركه القرآن في قلبي، فلم أكد أنتهي من قراءة السورة الثالثة من القرآن حتى وجدتني ساجدة لخالق هذا الكون، فكانت هذه أول صلاة لي في الإسلام»[(١)].

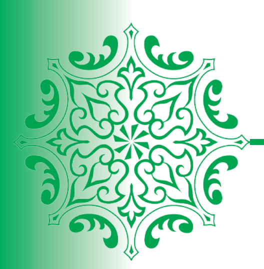




---

(١) عائشة برجت هوني ، نشأت في أسرة إنكليزية مسيحية، وشغفت بالفلسفة، ثم سافرت إلى كندا لإكمال دراستها، وهناك في الجامعة أتيح لها أن تتعرف على الإسلام، وأن تسلم وتؤمن بالله، وقد عملت مُدرسة في مدرسة عليا في نيجيريا.





قائمة المراجع

١. الإتقان في علوم القرآن.

٢. أخلاق حملة القرآن للآجري.

٣. أساس البلاغة.

٤. الأسماء والصفات للبيهقي.

٥. الإصابة في تمييز الصحابة.

٦. الاعتصام – الشاطبي.

٧. الأمثال في القرآن/ لابن القيم.

٨. بحث الواجب الدعوي على حملة القرآن.

٩. البداية والنهاية.

١٠. البرهان في علوم القرآن.

١١. البكاء عند قراءة القرآن – عبدالله اللحيدان.

١٢. تاج العروس.

١٣. تاريخ الإسلام للإمام الذهبي.

١٤. تاريخ دمشق.

١٥. التبيان في آداب حملة القرآن.

١٦. التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار/ لابن رجب الحنبلي.

١٧. تدبر القرآن - سعيد عبد العظيم.

١٨. تدبر القرآن - سلمان السنيدي.

١٩. ترجمة الأئمة الأربعة.

٢٠. تفسير الخازن.

٢١. تفسير الطبري.

٢٢. تفسير القرآن العظيم - ابن كثير.

٢٣. تفسير القرطبي.

٢٤. التفسير الميسر.

٢٥. تهذيب الكمال.

٢٦. التوسل.

٢٧. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء — أبو نعيم الأصبهاني.

٢٨. رسائل خدمة جوالك - بإشراف د.أسماء الرويشد.

٢٩. رهبان الليل - سيد العفاني.

٣٠. زاد المعاد.

٣١. سير أعلام النبلاء - الزركلي.



٣٢. السيرة النبوية – ابن هشام.

٣٣. شرح مقدمة التفسير.

٣٤. شعب الإيمان – البيهقيّ.

٣٥. صحيح البخاريّ.

٣٦. صحيح مسلم.

٣٧. صفة الصفوة – ابن الجوزيّ.

٣٨. صفقات رابحة – خالد أبو شادي.

٣٩. صفقات رابحة، خالد أبو شادي.

٤٠. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة/ ابن القيم.

٤١. صيد الخاطر – ابن الجوزيّ.

٤٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاريّ.

٤٣. الفوائد/ ابن القيم.

٤٤. في ظلال القرآن.

٤٥. قالوا عن الإسلام – د.عماد الدين خليل.

٤٦. القرآن الكريم.

٤٧. كتاب التوابين – ابن قدامة.

٤٨. كتب العلامة محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٤٩. مجموع فتاوى ابن تيمية.



٥٠. مختصر قيام الليل – محمد بن نصر المروزي.

٥١. مدارج السالكين – ابن القيم.

٥٢. مسند أحمد بن حنبل.

٥٣. مشاركات العديد من الإخوة والأخوات في قسم (قصص تحكي تجارب أهل القرآن في تدبر آياته) وقسم (قصص تحكي تأملات ومواقف مع آيات القرآن) من خلال البريد ورسائل الجوال.

٥٤. مشروع الحياة من جديد – د.أسماء الرويشد.

٥٥. مصنف ابن أبي شيبة .

٥٦. المعجم الكبير.

٥٧. مفتاح دار السعادة.

٥٨. الموطأ برواية يحيى الليثي.

٥٩. نظم الدرر للبقاعي.

٦٠. النكت والعيون للماوردي.

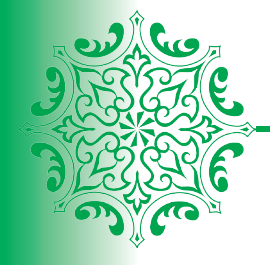
٦١. هكذا علمتني الحياة – عليّ بن عبد الخالق القرنيّ.

٦٢. هكذا علمتني الحياة – مصطفى السباعي.

٦٣. وقفات في حياة الشيخ ابن عثيمين – إحسان العتيبي.







فهرس الموضوعات

الفصل الأول:





